ملحق الكتروني تصدره جريدة «العدالة» اليومية، يهتم بترويج الافكار والمفاهيم
لتحرير القدس واراضينا المحتلة، ومقاومة الصهيونية والهيمنة

بسم الله الرحمن الرحيم

((إنّ هذه امَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ))

((وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ * إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ * وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ * وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.))

((وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا.))

ملحق العدالة

وحدة الساحات | أصالة الوعي | تكامل المسؤوليات

العدد 15 -السبت 17 كانون الثاني 2026

ان ما يتم نشره في الملحق يمثل رأي الكاتب ولا يعبر بالضرورة عن رأي (العدالة)

رؤيـة

ارتأت هيئة تحريـــر جريدة «العدالة» إصـــدار ملحق دوري يتنـــاول القضايا الفكرية ذات الأبعـــاد المعرفية والتأسيســـية والتحليلية المعمقة. فهناك حقيقـــة واضحة وهي ان تطور الاعلام وسرعة انتشاره، وتعدد وسائله قد راكم مفاهيم تعتمد الكم على حساب ألنوع. وتعتمد التبسيط والتعابير الشعبوية وسعة النشر والترويج على حساب سلامة المفاهيـــم وصحة بناءاتها ودقة معلوماتها. ولاشـــك ان ذلك قد اثـــر ويؤثر في مختلف مناحي الحياة السياســـية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والحقوقية والوطنية. بل هو يؤثر على الحصانات الفردية والجماعية والمجتمعية. فيسهل على قوى الاستغلال والشر والاســـتعمار التلاعب والاختراق بمشاعر النـــاس وعواطفهم لتمرير مخططاتهم وتحقيق اهدافهم.

لقد كشـــف «طوفـــان الأقصى» حقيقـــة لم تكن خافيـــة لكنها لم تظهـــر بالوضوح الذي ظهرت عليه بعد الســـابع من تشـــرين اول (اكتوبر) ٢٠٢٣. كشـــفت ان قضية فلسطين هي ليســـت قضية تحرير ارض سليبة عربية او إســـلامية فحسب. بل هي قضية تحرير فكر وتاريخ وعلاقات ووعي على صعيد عالمي، وليس على صعيد محلي فقط. فالصهيونية والاستعمار والهيمنة والمعايير المزدوجة والاســـتغلال والليبرالية والجندرية والفصل العنصري والإبادة الجماعية وانتهاك حقوق الأفراد والشـــعوب كل مترابط. فهناك وعي مغرض سقيم يســـعى الطغاة والمستغلين نشـــره وترويجه. وهناك وعي هادف سليم يســـعى المخلصون ترســـيخه وحمايته. ونحن ســـنبذل جهدنا لان نؤدي ولو بمساهمة بســـيطة في خدمة الوعي الجاد والســـليم بنقل الكثير من الكتابات والمقالات الواعية المفيدة التي ينتفع بها الجميع وليس جهة او بلد واحد. فوحدة الساحات وتعميق الوعي وتحمل المسؤليات لا تخص ساحة واحدة بل تخص البشرية كلها.

هيئة تحرير العدالة

فهرست

من أمريكا اللاتينية إلى سوريا: صراع الروايات ٥
محمد ميرندي

سلاح ايراني يقلب المعادلة؟ ١١
العميد المتقاعد اكرم سريوي خبير اسلحة، وقانون دولي

الحرب الصفرية: يا عرب ستخسرون اذا سقط النظام الايراني ١٥
تميم البرغوثي

بمواجهتها للإمارات، تعيد السعودية تشكيل الشرق الأوسط ١٧
ديفيد هيرست

«الدولة الوطنية/القومية»: تمكين الغرب، وتمزيق الشرق ٢١
السيد عادل عبد المهدي

مستقبل النمو العالمي، ٣٣
في ظل حقائق الجغرافيا السياسية والتفتت
جيفري ساكس

نهاية التفوق الجوي الأمريكي ٤١
دوغلاس ماكجريجور

معضلة أستراليا: لماذا تبقى الصين، بينما قد تغادر أمريكا ٤٩
كيشور محبوباني

التراجع المزمن للدولار أمام بدائل منافسيه ٥٥
إيغوف هيز

ملحق الكتروني تصدره جريدة «العدالة» اليومية، يهتم بترويج الافكار والمفاهيم لتحرير القدس واراضينا المحتلة، ومقاومة

الصهيونية والهيمنة

صاحب الامتياز: السيد عادل عبد المهدي

مدير التحرير: د.علي الشاطي

التصميم: العدالة

ALADALAEDITOR@YAHOO.COM

ALADALANEWS.NET

الوان المقالات:

مكتوبة

محكية

مترجمة

لفتح المكتبة الرقمية، كتب مختارة (PDF) اضغط على الرابط الاتي.

https://aladalanews.net/adala-books/

محمد ميرندي

٢٠٢٦/١/٩

المصادر:

Al Mayadeen English

من أمريكا اللاتينية إلى سوريا: صراع الروايات

تقدمة:

(«تبديد الغموض حول إيران»، يبدأ سيد محمد مرندي، أستاذ الأدب الإنجليزي والاستشراق في جامعة طهران، بتحليل تصريحات كاشفة صدرت خلال عملية اختطاف الولايات المتحدة للرئيس الفنزويلي نيكولاس مادورو، وفترة من الاحتجاجات والاضطرابات المحدودة في إيران، مُبيناً كيف يُؤطّر المسؤولون الأمريكيون الأحداث العالمية علناً من منظور المصالح الإسرائيلية.

يُمهد هذا التأطير الطريق لإعادة فحص نقدي للوضع في سوريا، بدءًا من انتفاضة عام ٢٠١١، وتتبع كيفية إعادة تشكيل أزمة البلاد بفعل التدخل الأجنبي، والجماعات المسلحة التكفيرية، واستراتيجية أوسع لتغيير النظام بقيادة الولايات المتحدة.

ويفند مزاعم «التوسع والطموح الطائفي» الإيراني، مُقارنة بين روايات وسائل الإعلام الغربية والسياسات الموثقة، والاعترافات الرسمية، والتطورات على أرض الواقع، لتوضيح لماذا لم يكن الوجود الإيراني في سوريا، ولاحقاً في العراق، أصل الصراع، بل كان استجابة لتهديد أمني ناشئ، تحكمه مبادئ صارمة من الطلبات الرسمية للدولة، والمقاومة المحلية، ودور استشاري محدود. ولماذا لم تشن إيران تدخلاً عسكرياً واسع النطاق في سوريا عام ٢٠٢٤، وماذا يكشف هذا عن الطبيعة الحقيقية لاستراتيجيتها في المنطقة). وهذه هي اطروحة محمد ميرندي:

في أعقاب اختطاف الرئيس مادورو وخلال فترة الاحتجاجات وأعمال الشغب في إيران، ظهر تصريحان كاشفان للغاية على قناة فوكس نيوز. أكد الجنرال الأمريكي المتقاعد جاك كين قائلاً: «إن التداعيات هنا كبيرة حقاً بالنسبة لإسرائيل». كاد أن يقول إسرائيل قبل أن يصحح بسرعة إلى الشعب الفنزويلي. في الوقت نفسه تقريباً، نشر مدير وكالة المخابرات المركزية السابق مايك بومبيو تغريدة لاذعة جاء فيها: «عام جديد سعيد لكل إيراني في الشوارع. وكذلك لكل عميل للموساد يسير بجانبهم».

بالنظر إلى أن السياسة الأمريكية في غرب آسيا وشمال إفريقيا تتوافق بشكل واضح مع المصالح الإسرائيلية، وبالنظر إلى أن العدوان على فنزويلا مرتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بتلك المصالح، يبدو من الحكمة إعادة النظر في قضية سوريا في ٢٩ ديسمبر.

وبعد لقائه مع بنيامين نتنياهو، أدلى الرئيس دونالد ترامب بتصريح علني لافت. كان يقف هناك مع رئيس وزراء النظام الإسرائيلي إلى جانبه، وأشاد بالرئيس التركي أردوغان لدوره الإيجابي والمحوري في تحقيق هدف الإطاحة بالزعيم السوري السابق بشار الأسد. ثم أضاف ترامب أن رئيس الوزراء نتنياهو وافقه الرأي. ويشتركون في هذا التقييم الإيجابي. وصف ترامب زعيم الجماعات المسلحة في سوريا، أبو محمد الجولاني، المعروف أيضاً باسم أحمد الشرع، بأنه شخص يدعمه. وأعرب عن أمله في أن يتمكن نتنياهو من إقامة علاقة جيدة معه. قال ترامب «سأحاول أن أجعلهم ينسجمون معاً» .

في السابق، كان نتنياهو يعزو انهيار حكومة الأسد في المقام الأول إلى الضغط العسكري الذي مارسه النظام الإسرائيلي، مؤكداً أن هذا الانهيار هو النتيجة المباشرة لعملنا القوي ضد حزب الله وإيران. جولاني ليس شخصية عادية. كان حتى وقت قريب قائداً مطلوباً للعدالة. كانت جماعته، هيئة تحرير الشام، مصنفة حتى وقت قريب كمنظمة إرهابية من قبل الولايات المتحدة. وكانت هناك مكافأة بملايين الدولارات لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض عليه. وهنا الجزء اللافت للنظر. على الرغم من تصنيفه كإرهابي ورصد مكافأة مالية لمن يقتله، لم تبذل الولايات المتحدة أي محاولة لقتله. هذا رجل شارك في تأسيس تنظيم داعش، وهو رجل كانت جماعته في سوريا قبل تغيير اسمها فرعاً من تنظيم الدولة الإسلامية. نفس الأشخاص الذين قيل لنا إنهم نفذوا هجماتهم الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، مما أسفر عن مقتل ما يقرب من ٣٠٠٠ أمريكي. ومع ذلك، ولأكثر من عقد من الزمان، كان دعم إيران لسوريا أحد أكثر جوانب السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية تعرضاً للانتقاد. عبر حلف الناتو وبين حلفاء الولايات المتحدة الإقليميين ووكلائها. لقد تم تأطيرها والحكم عليها وإدانتها باستمرار بشكل ملائم بلغة الطائفية، وهي لغة عملت على إخفاء أدوار النظامين الأمريكي والإسرائيلي.

روّجت مراكز الفكر الإعلامية الغربية ونظيراتها في المعسكر الموالي للغرب في جميع أنحاء المنطقة لرواية واحدة، معركة السرديات

١- وهي رواية التوسع الإيراني والطموح الطائفي.

لكن بعد ذلك كانت هناك عمليات قطع الرؤوس وأسواق الرقيق، ونظام التكفيري بدعم من الولايات المتحدة والذي شق طريقه عبر الحدود. وهذا يثير سؤالاً بالغ الأهمية. هل كان وصول المستشارين الإيرانيين إلى دمشق في عام ٢٠١٣ تدخلاً أجنبياً نشطاً أم كان نضالاً جماعياً من أجل الأمن ضد عملية تغيير النظام التي تقودها الولايات المتحدة؟ ومع ذلك، من الواضح أن وجود إيران في سوريا وبعد ذلك بوقت قصير في العراق لم يكن بداية لمشكلة، بل كان رد فعل عليها.

ادارة الحرب بالوكالة

٢- لفهم وجودِ إيران في سوريا، يجب أولاً النظر إلى انتفاضة عام ٢٠١١.

ظاهرياً، كانت استمراراً للربيع العربي، بدءاً من المطالب المشروعة بالإصلاح. كان بشار الأسد، المنتمي لحزب البعث السوري، زعيماً علمانياً خارج المعسكر الغربي. في تلك الأيام الأولى، رأت إيران فيه مجرد زعيم يواجه أزمة داخلية. نصح المسؤولون الإيرانيون علناً هو وزملاءه بتنفيذ الإصلاحات، وتجنب القمع الوحشي، وإيجاد حل سياسي. في ذلك الوقت، كانت علاقة الأسد، في الواقع، أوثق مع الزعماء العرب والأتراك مقارنة بعلاقته مع إيران. كانت تربطه علاقة صداقة شخصية مع أردوغان. بل إنهم وعائلاتهم يقضون إجازاتهم معاً. ومع ذلك، ومع تصاعد الانتفاضة، تدفق إلى هذا الفراغ فيلق أجنبي من المتطرفين يتمتع بتمويل جيد للغاية. في الغالب، كانوا من نفس الفئة أو متوافقين معها أيديولوجياً. وسرعان ما أصبح العديد من هؤلاء المقاتلين أنفسهم النواة المؤسسة لتنظيم داعش. بالنسبة لطهران، ومع مشاهدة هذا التحول السريع، تغيرت الحسابات. أدركت إيران أن ما تلا ذلك لم يكن حركة طبيعية. كان ذلك بمثابة تدبير لحرب بالوكالة، حرب ستكون قواتها الرئيسية من الجهاديين التكفيريين المدعومين من الولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين. والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء الحلفاء كانوا أنظمة عائلية استبدادية وجدت فجأة صوتها يصرخ مطالبة بالحرية في ليبيا وسوريا.

العقيدة الاستراتيجية الايرانية

٣- لم يُتخذ قرار إيران في فراغ. لقد استرشدت بعقيدة استراتيجية.

تطلبت هذه العقيدة ثلاثة أشياء:
أولاً، دعوة رسمية من الحكومة السورية.
ثانياً، قضية عادلة تُعرَّف بأنها الدفاع عن شعب ضد العدوان الذي تقوده الولايات المتحدة والإرهاب التكفيري .
وثالثاً، تفويض صارم لدعم القوات المحلية وتقديم المشورة لها وتمكينها، وعدم استبدالها أو احتلالها مطلقاً.
بينما رأت إيران تهديداً وجودياً للمنطقة. ورأى كبار مهندسي السياسة الأمريكية فرصة استراتيجية. فقال احدهم: «لقد كان الأمر صادماً وخيانة لي ولكل شخص قُتل في أحداث ١١ سبتمبر، ولعائلاتهم، ولإخواني وأخواتي الذين يرتدون الزي العسكري. عندما كنت عضواً في الكونغرس، علمت ببرنامجي الرئيس أوباما المزدوجين اللذين بدأهما بالفعل للإطاحة بنظام سوريا، واستعداده من خلال برنامج «شجرة الجميز» التابع لوكالة المخابرات المركزية، والذي تم الكشف عنه الآن، للعمل مع تنظيم القاعدة وتسليحه وتجهيزه في محاولة للإطاحة بهذا النظام، مما أدى إلى بدء حرب أخرى لتغيير النظام في الشرق الأوسط».
وقد جاء التعبير المقلق عن هذا الرأي من داخل إدارة أوباما. في رسالة بريد إلكتروني بتاريخ فبراير ٢٠١٢، إذ كتب مسؤول كبير في وزارة الخارجية هو جاك سوليفان، والذي أصبح فيما بعد مستشار الأمن القومي للرئيس بايدن، إلى وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون: «تنظيم القاعدة يقف إلى جانبنا في سوريا». كانت سياستهم تغيير النظام. بعد الإطاحة بمحمد القذافي وقتله في ليبيا، توجهت الإدارة وحلفاؤها أنظارهم نحو دمشق. ذكرت وثيقة صادرة عن وكالة الاستخبارات الدفاعية الأمريكية

عام ٢٠١٢ أن الحلفاء الإقليميين للولايات المتحدة كانوا يحاولون بشكل صريح إنشاء كيان سلفي في شرق سوريا. وفي اعتراف لافت للنظر، صرح مدير منظمة الشباب آنذاك، الجنرال مايكل فلين، في مقابلة لاحقة على موقع الجزيرة، بأن إدارة أوباما قد دعمت هذه السياسة.

تشريح جيش ارهابي

٤- في أوائل عام ٢٠١٣،

تم تسمية هذا الجهد الأمريكي السري الأوسع لدعم المعارضة السورية والضغط على حكومة الأسد رسميًا بالاسم الرمزي « شجرة الجميز». وقد تم تفويضها من قبل أوباما وإدارتها من قبل وكالة المخابرات المركزية، وأصبحت واحدة من أكبر برامج العمليات السرية في التاريخ. وقد تزامن ذلك مع التدفق الهائل للتمويل والأسلحة التي قدمها حلفاء الولايات المتحدة الإقليميون عبر تركيا والأردن. وبحسب مسؤولين أمريكيين، فإن البرنامج كان يُدار من قبل قسم العمليات الخاصة التابع لوكالة المخابرات المركزية، وقد قام بتدريب آلاف المتمردين. أذِنَ الرئيس باراك أوباما سراً لوكالة المخابرات المركزية ببدء تسليح المتمردين السوريين المحاصرين في عام ٢٠١٣. وأصبح البرنامج معروفاً للعامة في منتصف عام ٢٠١٦.

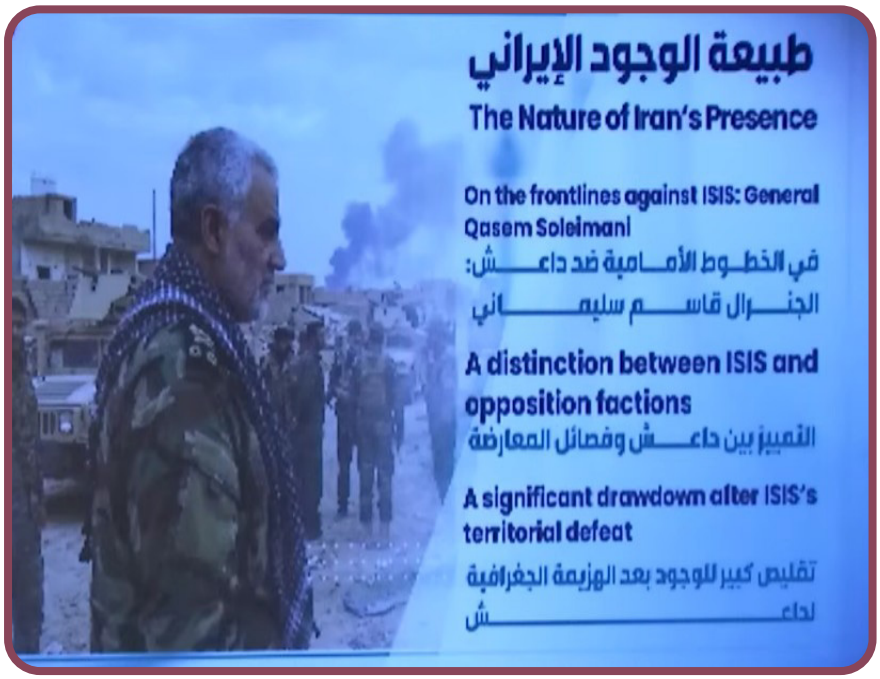

ورأى النقاد أنه غير فعال ومكلف، وأثاروا مخاوف بشأن تحويل الأسلحة إلى الجماعات الجهادية. في عام ٢٠١٤، أفادت صحفية لبنانية أمريكية تعمل في قناة «برس تي في» تدعى سيرينا سام، على الحدود التركية السورية، أن شاحنات تابعة لبرنامج الأغذية العالمي كانت تُستخدم لتهريب مقاتلي داعش والأسلحة إلى سوريا. بعد فترة وجيزة من كشفها للأمر، اتهمتها المخابرات التركية بأنها جاسوسة. نفت الاتهام خلال بث مباشر، معربة عن قلقها الشديد على سلامتها. وبعد ساعات قليلة، في ١٤ أكتوبر ٢٠١٤، قُتلت في حادث سيارة مريب للغاية . تدفقت الأسلحة والأموال والمعلومات الاستخباراتية عبر هذا الخط السري. لكن الأسلحة التي قدمتها الولايات المتحدة وحلفاؤها الإقليميون، بما في ذلك النظام في تل أبيب، تم استخدامها في الغالب من قبل الفصائل الجهادية. في جوهر الأمر، تحول هذا إلى سوق أسلحة مترامية الأطراف، مما غذى شبكات الإرهاب التي تعهدت أمريكا بتدميرها بعد أحداث ١١ سبتمبر. وقد أثبت هذا أن رواية إيران بأنها كانت تحارب جيوش مدعومة من الولايات المتحدة لم تكن دعاية. لقد كان واقعاً مريراً . وكالعادة، إلى جانب هذه الحرب القذرة، فرضت الولايات المتحدة وحلفاؤها عقوبات خانقة. في نهاية المطاف،

وبعد سنوات من الصراع وأثناء احتلال حقول النفط السورية، فرضت الولايات المتحدة قانون قيصر في عام ٢٠١٢، وهي ضربة اقتصادية نهائية تهدف إلى سحق ما تبقى من الاقتصاد السوري وإخضاع البلاد. واليوم نرى نفس الأدوات تُستخدم ضد شعوب فنزويلا وإيران واليمن وكوبا، وإن كان ذلك بنجاح أقل.

شملت الحرب القذرة على طول مرتفعات الجولان التي تحتلها سوريا مجموعة معقدة من فصائل المعارضة تتراوح بين وحدات الجيش السوري الحر وجماعات جهادية سلفية مثل هيئة تحرير الشام وداعش. منذ عام ٢٠١٣ على الأقل، أنشأ النظام الصهيوني آلية سرية لعلاج المقاتلين الجرحى من هذه الفصائل في المستشفيات الميدانية على طول الحدود. تشير التقديرات إلى أن آلاف المقاتلين تلقوا رعاية طبية متقدمة. لكن في مقابلته مع صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية،

تابع آيزنكوت قائلاً إن شحنات الأسلحة إلى الجماعات المتمردة كانت تتألف من ذخائر خفيفة للدفاع عن النفس. في حين نقل تقرير صدر في سبتمبر عن مجلة «فورين بوليسي» عن قادة وجنود مزعومين من المتمردين السوريين قولهم إن إسرائيل تقوم بتسليح وتمويل ما لا يقل عن اثنتي عشرة جماعة مختلفة. لكن الدعم امتد إلى ما هو أبعد من المساعدة الطبية. في عام ٢٠١٧، نشرت صحيفة «وول ستريت جورنال» روايات مفصلة وموثقة من مقاتلين داخل هذه الجماعات. وصفوا العلاقة التي تضمنت دفع مبالغ نقدية شهرية منتظمة للقادة، ورواتب للمقاتلين،

والإمداد المنتظم بالضروريات مثل الطعام والوقود والمعدات الطبية. والأهم من ذلك، أن سلسلة التوريد تضمنت أيضاً أسلحة تهدف إلى الحفاظ على القدرة العملياتية لهذه الجماعات ضد قوات الحكومة السورية. قد يكون التنسيق التكتيكي صارماً ومباشراً. عندما يتكبد فصيل متحالف خسارة كبيرة في ساحة المعركة، غالباً ما تتبع ذلك ضربات مدفعية إسرائيلية دقيقة أو غارات جوية تستهدف مواقع الجيش العربي السوري وأسلحته في نفس المنطقة. كان هذا أكثر من مجرد دعم. لقد كان ذلك بمثابة تعويض عسكري فوري، يعاقب القوات السورية المتقدمة ويعمل فعلياً ككتيبة مدفعية خارجية لوكلاء مختارين .

طبيعة الوجود الايراني

٥- وبينما قام التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة بتوجيه الدعم إلى فصائل التكفيريين، وقعت مهمة مواجهتها على عاتق القوات الإيرانية والمقاومة.

على الخطوط الأمامية ضد تنظيم الدولة الإسلامية، قاد شخصية واحدة الحملة البرية في كل من العراق وسوريا، وهو الجنرال «قاسم سليماني». كان تأثيره العملياتي حاسماً في سوريا. كان «سليماني» مهندس الميليشيات التي كسرت الحصار الدموي الذي فرضته هيئة تحرير الشام على حلب. وفي وقت لاحق، قام بتنظيم العملية المعقدة الضخمة التي استعادت مدينة «دير الزور» الاستراتيجية من داعش، وهو انتصار حطم قبضة الجماعة على الأراضي. ومنع القوات الأمريكية من ملء الفراغ على طول الحدود العراقية السورية. في عام ٢٠١٤، عندما اجتاح تنظيم داعش أربيل ورفض أوباما تقديم المساعدة، كان الجنرال «سليماني» هو من رتب التسليم العاجل للأسلحة والضباط الإيرانيين إلى قوات البيشمركة الكردية، مما حال دون حدوث انهيار كارثي. لكن أهم إنجازاته لم يكن انتصاراً في ساحة المعركة، بل جيشاً استثنائياً. لقد جمع قوة عابرة للحدود فريدة من نوعها من المقاتلين الشيعة والسنة والمسيحيين والإيزيديين والعلويين والدروز والأكراد. تحالف تم تشكيله خصيصاً لتفكيك تنظيم داعش. لكن ماذا عساي أن أفعل؟ يسخر بعض من يُطلق عليهم اسم المثقفين ويعتقدون أننا نقاتل من أجل بقاء شخص واحد، وهو بشار. إنهم لا يدركون أن هذه واجهة للدفاع عن الإنسانية، وليس فقط للدفاع عن الإسلام. إنها واجهة للدفاع عن الإسلام، وليس فقط للدفاع عن الشيعة. ولهذا السبب، استقبله حلفاؤه كمنقذ، واعتبره أعداؤه تهديداً لا مثيل له. إن هذه القدرة تحديداً على حشد شبكته المتنوعة ضد عائلة تكفيريه هي التي جعلته هدفاً رئيسياً لنتنياهو وترامب.

اتسمت استراتيجية إيران في سوريا بازدواجية متعمدة وعلنية. وقد ميزت هذه الممارسة بشكل حاد بين الجماعات المسلحة التي تعتبر تهديداً وجودياً وتلك التي تعتبر تحدياً سياسياً. وشمل هذا الأخير فصائل معارضة أخرى، ولكن أيضاً أولئك الذين يندرجون ضمن طيف حركة تكفيرية والذين كانوا على استعداد للتفاوض. تم التعامل مع هؤلاء على أنهم خصوم، ومع ذلك يبقى من الممكن التوصل إلى حل معهم، مهما كان معقداً. وقد تجلى هذا النهج الدقيق في السياسة بشكل أفضل من خلال الدور المحوري الذي لعبته إيران في اتفاقيات المصالحة والإجلاء التي أبرمتها الحكومة السورية. هذه الصفقات، ولا سيما عملية الإجلاء المحمية التي قامت بها إيران للسكان وجماعات المعارضة الأخرى من شرق حلب في أواخر عام ٢٠١٦، جاءت بتكلفة باهظة. ضحت إيران بأفرادها لتأمين ذلك. وبالتالي، لم تكن النتيجة مجرد نصر عسكري، بل كانت نجاحاً إنسانياً وأخلاقياً وسياسياً واستراتيجياً. ومن العناصر الحاسمة الأخرى في الرواية الإيرانية التي تم إغفالها من الخطاب السائد هو الانسحاب الكبير لمستشاريها العسكريين التقليديين بعد الهزيمة الإقليمية لتنظيم الدولة الإسلامية في أواخر عام ٢٠١٧.

هذا التخفيض يدحض الادعاء بأن إيران سعت إلى وجود دائم واسع النطاق في سوريا. وبدلاً من ذلك، تحول نموذجها إلى وجود غير بارز، ومستشارين وحاميات في مواقع استراتيجية. وقد قلل ذلك من انكشاف إيران وتكاليفها مع الحفاظ على شبكتها الأمنية الأساسية، ومستشاريها المتمركزين، والقوى المسلحة الموالية لها، ومناطقها الرئيسية، كما ساهم في إضفاء الطابع المؤسسي على تبادل المعلومات الاستخباراتية.

هناك تساؤل؟ لماذا لم تشن إيران تدخلاً عسكرياً واسع النطاق لإنقاذ الأسد في عام ٢٠٢٤؟ يكمن الجواب في المبادئ التي وجهت مشاركة إيران منذ البداية. خلافاً للرواية الغربية للاحتلال التوسعي، لم تكن مهمة إيران أبداً خوض حرب سوريا نيابة عنها . كان تدخلها مشروطاً بشكل صارم بركيزتين أساسيتين. طلب سيادي رسمي من الدولة المعترف بها، وإرادة واضحة من الجيش السوري والسكان للمقاومة. وفي أواخر عام ٢٠٢٤، ووفقاً لمسؤولين إيرانيين، لم يتم استيفاء أي من الشرطين. لم تصدر الحكومة السورية أي نداء رسمي للتدخل، ولم تُبدِ قطاعاتٌ ناقدة من الدولة والمجتمع أي رغبة في دفاع حاسم. وبدون هذا الركيزة المحلية الأساسية، اعتبرت إيران أي تدخل واسع النطاق ليس عديم الجدوى فحسب، بل وربما ضارًا أيضًا. لسنوات، حذرت المخابرات الإيرانية دمشق من التهديدات الناشئة، وقدمت تنبيهات بشأن تحركات وتوحيد الفصائل المتطرفة.

بعد الهزيمة الإقليمية التي مُني بها تنظيم داعش، كانت إيران قد سحبت بالفعل قواتها القتالية الرئيسية. لم يكن لدى دمشق، لأسبابها الخاصة بما في ذلك رغبتها الساذجة في التقارب مع الولايات المتحدة، حافز يذكر لعكس هذا الاتجاه. لذلك كان من المستحيل تقديم تعزيزات سريعة وحاسمة. كانت إيران تفتقر إلى البنية التحتية على أرض الواقع، والأهم من ذلك، إلى شريك محلي موثوق به لاستقبالها ودعمها. وهذا يؤكد على الاتساق الاستراتيجي. قدمت إيران معلومات استخباراتية ومستشارين للدفاع عن الدولة ضد قوات تكفيرية مدعومة من الولايات المتحدة، لكنها لن تتحول إلى جيش احتلال لإنقاذ زعيم انهارت أركان دعمه. لم يكن بقاء بشار الأسد شخصياً عقيدة إيران الثابتة.

الوضع الحالي في سوريا مزرٍ للغاية. يسيطر النظام الصهيوني على مناطق حيوية في الجنوب. يسيطر أردوغان على جزء كبير من الشمال، بينما تحيمن الولايات المتحدة ووكلائها على الشمال الشرقي والشرق. هناك انعدام للأمن، ومذبحة الأقليات والمعتدلين وتشويه سمعتهم ليسا أمراً عرضياً بل سمة أساسية.

استمتع زعيم حركة «هيئة تحرير الشام» باحتفال علني بالحب مع الجنرال المتقاعد «بترايوس». ولعب كرة السلة مع رئيس مركز القيادة والسيطرة. وحصل على لقاء سري وغريب في البيت الأبيض مع ترامب. هذه الحقائق، من بين أمور أخرى، تثبت أن إيران ومحور المقاومة كانا على حق طوال الوقت. لم تكن هذه الحرب القذرة أبداً من أجل الشعب السوري.

كانت مناورة جيوسياسية لإعادة تشكيل المنطقة. وكان المستفيد الرئيسي منها هو المشروع الصهيوني. ومع ذلك، هناك نتيجة استراتيجية عميقة. لقد تعرض المشروع التقني المدعوم من حلف الناتو لإضعاف شديد. رغم هشاشة وضع العراق ولبنان، إلا أنهما نجيا من هجومها الكامل. لقد انكشفت الآن الأنظمة الإقليمية التي قامت بتسليح هؤلاء المتطرفين أنفسهم، بعد أن لم تفعل شيئاً على الإطلاق من أجل غزة، في حين قدم محور المقاومة تضحيات استثنائية من أجل فلسطين. ربما بعد كل هذه الأحداث، فإن الربيع العربي الحقيقي أو الصحوة ليس أمراً بعيد المنال كما يعتقد البعض.

العميد المتقاعد اكرم سريوي خبير اسلحة، وقانون دولي

٢٠٢٦/١/١٦

سلاح ايراني يقلب المعادلة؟

فجأة الغت الولايات المتحدة الامريكية الضربة المقررة على ايران. او تم تاجيلها على الاقل. لماذا؟ ماذا حصل بعد ان كان العالم يترقب بان الضربة حاصلة في الساعات القادمة؟ بعض القادة الاوروبيين والامريكيين أكدوا بان الضربة حتمية. تم استدعاء المواطنين الاوروبيين، وأمروا معظم الرعايا الاجانب بمغادرة ايران. اسرائيل فتحت الملاجئ. ووضعت دفاعاتها الجوية في اقصى جهوزية. تم اغلاق الاجواء فوق ايران. كل ذلك كان يؤشر الى ان الضربة حاصلة لا محالة.

فجأة هناك شيء ما غير كل شيء. تقرير يصل الى البنتاغون الامريكي، يؤكد بان الضربة الامريكية ستفشل. لان ايران بمساعدة روسية وصينية حضرت مفاجأة كبرى، ستقلب المعادلة.

ماذا حدث؟ الحقيقة، ساشرح لكم بداية قليلاً، كيف تركز الولايات المتحدة الامريكية على هيمنتها وسيطرتها ونجاحها في أي عملية عسكرية، دون ان تخسر أي جندي على الاطلاق.

سياسة ترامب والحرب الالكترونية

اليوم السياسة الرئيسية للرئيس الامريكي دونالد ترامب لا تقبل باي خسائر بشرية. لذلك منذ مدة طويلة تعمل الولايات المتحدة الامريكية على ما يسمى الحرب الالكترونية. وهذا ما نفذته تقريبا في فنزويلا. تملك الولايات المتحدة الامريكية ١٠٠ طائرة للحرب الالكترونية من نوع ١٨ جي. هذه الطائره المعدلة عن طائره اف ١٨، تستطيع ان تشن حرباً الكترونية على أي دولة. فتعطل في تلك الدولة كل وسائط الدفاع الجوي. كل الرادارات وكل الاتصالات. تشل الاتصالات وتقطع المواصلات والاتصالات بين فروع ومراكز القيادة في الجيش. بمعنى آخر شل لكل قدرات الدفاع الجوي والارضي لأي دولة في العالم.

وعندما دخلت طائرتان في فنزويلا، فانهما كانتا كافيتان لشل الدفاعات الجوية. فقصفت ودمرت بعض الدفاعات الجوية مثل منظومات بوك، التي رأينا صور دمارها، والتي حاولت ان تتصدى للطائرات الامريكية. الطائرات الامريكية استخدمت سلاحاً اخراً،

عندما حاولت «قوات دلتا» ان تقوم بانزالها على قلعة مادورو، وحصن مادورو، فاستخدمت سلاح الاعماء الضوئي. وهو نوع من الليزر، يقول العسكريون في فنزويلا بانهم شعروا بالاعماء وبالشلل، وباتوا غير قادرين على الحركة. وهكذا نزلت «قوات دلتا» بكل اريحية.

ودخلت الى مكان تحصن مادورو واعتقلت الرئيس. وكل العالم يعرف الان، كيف حدث ذلك تقريبا.

الحرب الإلكترونية الإيرانية

لكن في ايران المسألة مختلفة جداً. إذ تحدثت التقارير الامريكية وتحديداً صحيفه بوليتيكو الامريكية (وربما هذا سرب اليها من قبل جهات استخباراتية طبعا في البنتاغون) ان ايران حصلت على **منظومات دفاع الكتروني متطورة جداً. فوفقا للصحيفة هي منظومات «كراسوخا ٤» الروسية. هذه المنظومة تعمل بمدى ٣٠٠ كم، وتستطيع ان تشوش على ادارات الطائرات وعلى الصواريخ الموجهة. وتستطيع ان تحمي مراكز القيادة. أي مراكز منظومات الدفاع الجوي للدولة الايرانية تحديداً.** فنشرت هذه المنظومات بشكل رئيسي حول طهران. وتقول الصحيفة ان طائرات «الاليوشن» الروسية التي وصلت مؤخرا الى ايران، هي التي نقلت هذا النوع من الرادارات، او هذا النوع من منظومات الدفاع الالكتروني

ايران ليست متخلفه في هذا المجال. فمنذ مدة طويلة تعمل ايران على تطوير منظومات دفاع الكتروني. او منظومات هجوم الكتروني للتشويش الالكتروني على الاعداء. بكل الحالات، نحن الان امام مرحلة جديدة. مرحلة حرب جديدة. حرب صامتة دون استخدام أي رصاص. أو قذائف أو متفجرات. من يستطيع ان يسيطر ويسبق في الضربة الالكترونية، سيربح الحرب.

حدود القدرة الأمريكية

هنا نقطة مهمة جداً ايضاً. اريد ان اركز عليها. حتى منظومات الهجوم الالكتروني الامريكية كطائرات ال ١٨ جي، لا تعني أن هذه الطائرات قادرة على شل الدفاعات الجوية و الاتصالات في كل المناطق. او في كامل ايران. فالمدى محدود بـ ٢٠٠-٢٥٠ كم فقط. رغم ان امريكا تملك ١٠٠ طائرة من هذا النوع. لكن الامر يتعلق ايضاً باستطاعتها ان تنفذ هجوما الكترونيا على مساحة واسعة في ايران. فهناك مشكلة ثانية في اعتقادي. فمنظومات الدفاع الالكتروني الايرانيه ستعطل ايضا قسم كبير من عمليات الهجوم الالكتروني الامريكية.

الرادار السالب

فالنقطة الاكثر خطورة هي ما قيل عن استلام ايران لمنظومات رادارية مشابهة او هي «مشبكا او ماسكفا ١» فهذا الرادار:

١ـ رادار لا يبث اشعاعات

٢ـ لا يبث ذبذبات

٣ـ لا يبث طاقة على الاطلاق نبضات كهرومغناطيسيه

فهو يعمل فقط بالطريقة السالبة. إنه يتلقى الاشارات من رادارات الطائرات المهاجمة. ويستطيع تحديد مكانها ومداها طبعاً ومسافتها. والنقطة المحورية ان منظومات الدفاع الجوي الموجودة في ايران مثل «اس ٣٠٠» او الايرانية المشابهة لها، تستطيع ان تتصل بهذا الرادار. ولا تحتاج هي ان تشغل راداراتها. بل تستطيع ان تتخذ او تأخذ الاوامر من الرادار «مشكبا او مسكفا واحد» وتطلق صواريخها نحو الاهداف التي يحددها الرادار السالب. وهذا سيجنب منظومات الدفاع الجوي كشف مواقعها، وبالتالي قدرة الطائرات الامريكية على تحديد اماكن هذه المنصات واستهدافها. فالخطورة تكمن طبعاً على الطائرات الامريكية، حتى لو كانت من نوع اف ٣٥. لكن هذا ليس كل شيء.

الصواريخ الإيرانية

فالصواريخ الايرانية قادرة على استهداف القواعد الامريكية. اكان في دول منطقة الخليج العربي، إذ هناك ٦٠ قاعدة امريكية تعج بالجنود. إضافه الى قطع بحرية موجودة في خليج العرب، وقطع بحرية على مقربة من سواحل ايران في المحيط الهندي. وهذه كلها لا تستطيع ان تحمي نفسها من الصواريخ الايرانية. لماذا؟

إذ تبين في حرب الاثني عشر يوماً، ان الصواريخ الايرانية ـ حتى لو تم استخدام التشويش الالكتروني عليها او محاولة الحرب الالكترونية كي تغير مسارها او تغير اهدافها ـ وصلت الى اهدافها في قلب اسرائيل. فالدفاعات الجوية الاسرائيلية الامريكية، وكذلك منظومات التشويش الالكتروني فشلت في اعتراض هذه الصواريخ او التاثير عليها. هذه الصواريخ وصلت الى اهدافها في قلب اسرائيل.

مما أبهر الامريكيين والاسرائيليين، وأحدث دمراً كبيراً في تل ابيب شاهده العالم كله.

الصواريخ الايرانية التي لا يمكن صدّها الخطورة تكمن ليس في كل الصواريخ الايرانية. فبعض الصواريخ قد صُدت، لكن هناك صواريخ ايرانية اخرى لا يمكن صدها. اهم هذه الصواريخ:

١- «خيبر شكن»،
٢- «خرمشهر»
٣- «خيبر» او «خرمشهر ٤»

«خرمشهر ٤» هو صاروخ يعمل بالوقود السائل. صاروخ بالستي يستطيع ان يطير بسرعه تصل الى (١٦ ماخ) خارج الغلاف الجوي. و يحمل رأس بوزن ١٥٠٠ كغم تقريبا. اذاً لديه قدرة تدميرية كبيرة. ولديه قدرة كبيرة على المناورة. والاخطر من كل ذلك، انه يمكن توجيهه ليس فقط بواسطة الرادار او الاقمار الاصطناعية، بل بواسطة القصور الذاتي و التوجيه البصري الضوئي.

فالحرب الكترونية تستطيع ان تشوش على كل شيء، باستثناء منظومات التوجية البصري او التي تعمل بهذه الطريقة. اذاً هذا الصاروخ غير قابل للاعتراض من قبل منظومات الهجوم الالكتروني او الدفاع الالكتروني الامريكية والاسرائيلية. وبالتالي هو بمسافه ٢٠٠٠ كم. فهو قادر على استهداف كل القطع البحرية الامريكية الموجودة على هذه المسافة. حتى تلك الموجودة في البحر الاحمر. اذاً يعني المسأله باتت مخاطرة كبرى من قبل الولايات المتحدة الامريكية في الدخول في حرب الان مع ايران. ضمن هذه التوقعات او هذه التوازنات او هذه المعلومات الموجوده حول قدرات ايران .

اضافة لصاروخ «خيبرشكن» الفرط صوتي. فهو بسرعة (٩ ماخ) بمدى ١٤٥٠ كم. ويعمل بالوقود الصلب. وهو قادر ايضا على الوصول ليس فقط الى اسرائيل بل الى كل القطع البحرية الموجودة في البحر الاحمر. اضافة الى قدرة كبيرة على المناورة. وان ايران استخدمت هذين النوعين من الصواريخ على اسرائيل، واللذين وصلا بدقة الى اهدافهما. فكل المعلومات تفيد بان نسبة الخطأ فيهما لا يتجاوز ٥-١٠ امتار. فهذا صاروخ دقيق. لكن هذا ليس كل شيء.

القنابل الكهرومغناطيسية

هناك مسالة اضافية، هي انه عندما قامت اسرائيل بقصف ايران تحدثت عن انها استهدفت ليس فقط المنشآت النووية، بل مراكز صناعة الصواريخ، وتحديداً مراكز صناعة القنابل الكهرومغناطيسية. فهذا السلاح يعتبر الاخطر في العالم اليوم.

١ـ سلاح صامت
٢ـ لا صوت
٣ـ لا دخان
٤ـ لا غبار
٥ـ سلاح مدمر

يوازي، اذا لم نقل اكثر من سلاح الدمار الشامل النووي او غيره. سلاح خطير جداً. يستطيع ان يعيد اية دولة الى العصر الحجري. الى ٣٠٠ سنه على الاقل الى الوراء. إذ تتعطل كل الاتصالات. يتعطل كل شيء كهربائي. تتعطل بالنبضة الكهرومغناطيسيه.

«النبضة الكهرومغناطيسيه» هو هذا السلاح الذي بدأ العمل عليه منذ عام ١٩٦٢. وذلك عندما اكتُشف صدفة من قبل الولايات المتحدة الامريكية. بعدما اجرت تفجيراً نووياً على ارتفاع تقريبا ٢٥٠ ميل يومها. فتعطلت المصابيح في «جزر هاواي». تعطلت منظومات الكهرباء. وحصلت تعطلات كبيرة هناك. ثم اكتشف الامريكيون ان «اشعه كاما» التي تصدر عندما يحدث انفجار نووي، تتفاعل مع مكونات الغلاف، وما هو خارج الغلاف الجوي في الطبقات العليا للارض.

وتشكل «نبضة كهربائية»، في اجزاء واحد من مليون من الثانية. تكون كافيه لتمتد الى الاف الكيلومترات. وتعطل كل ما يعمل بوسائط الكترونية وكهربائية. وتم البدء بتطوير هذا السلاح. ووصلنا اليوم الى مرحلة متقدمة جداً. لم يعد فقط توليد هذه النبضة الكهرومغناطيسية فقط بطريقة التفجير النووي. بل هناك الان محركات ومولدات يمكن تحميلها في اسلحة عادية تستطيع ان تولد نبضة كهرومغناطيسية تعطل الاجهزة الكهربائية. والاخطر من كل ذلك ان صاروخ «خرمشهر-٤» يمكن تجهيزه، او ان ايران عملت على تجهيزه بهذا النوع من القنابل الكهرومغناطيسية. التي يمكن ان تستهدف بها اسرائيل او تستهدف بها مراكز وحاملات الطائرات. والمواقع الامريكية في المنطقه. هذا سيشكل خطراً كبيراً على القوات الامريكية والاسرائيلية.

الخلاصة

لهذا يبدو ان الولايات المتحدة الامريكية عدلت عن رايها. فهي غيرت رأيها، لانها وجدت ان هذه الضربة على ايران ستكون فاشلة. ولاشك انها ستبحث عن حلول لمواجهة هذا التحدي الايراني الجديد. لكنه يبدو اننا على الاقل على المدى المنظور سنكون امام واقع جديد. امام قدرات ايرانية لا يستهان بها في مواجهة الولايات المتحدة الامريكية. ربما لم تعد ايران بحاجه الى سلاح نووي. فيما اذا كانت فعلاً قد حصلت على سلاح متطور كهرومغناطيسي. فهذا قد يكون كافياً لحماية ايران من اي هجوم من اي دولة اخرى. وبالتالي نحن امام مسار متغير جدا ان الترددات الكهرومغناطيسية تتلاشى شيئا فشيئا. فهي تبدأ بالنبضة الكهرومغناطيسية بمئات الكيلو فولت ثم تنخفض تدريجيا الى ان تتلاشى. وفق المسافة المحددة لكل محرك. وما حصلت عليه ايران الان، يعتبر قفزة نوعية. وربما سنشاهد تحولا ليس فقط في ايران بل على مستوى العالم أيضاً. فدول قليلة تملك هذا النوع من السلاح. وايران دخلت هذا النادي الى جانب بلدان كروسيا والصين واسرائيل والولايات المتحدة الامريكية. وسننتظر ونرى كيف ستتغير مسارات الحرب في العالم.

هذه الصور تظهر الانفجار النووي في عمليات Fishbowl في ٩ يوليو ١٩٦٢، وهو أحد أشهر الاختبارات النووية التي أظهرت تأثيرات EMP الكبيرة على البنية التحتية وعلى الأقمار الصناعية وحتى على الأنظمة الأرضية البعيدة مثل هاواي

تميم البرغوثي

٢٠٢٦/١/١٦

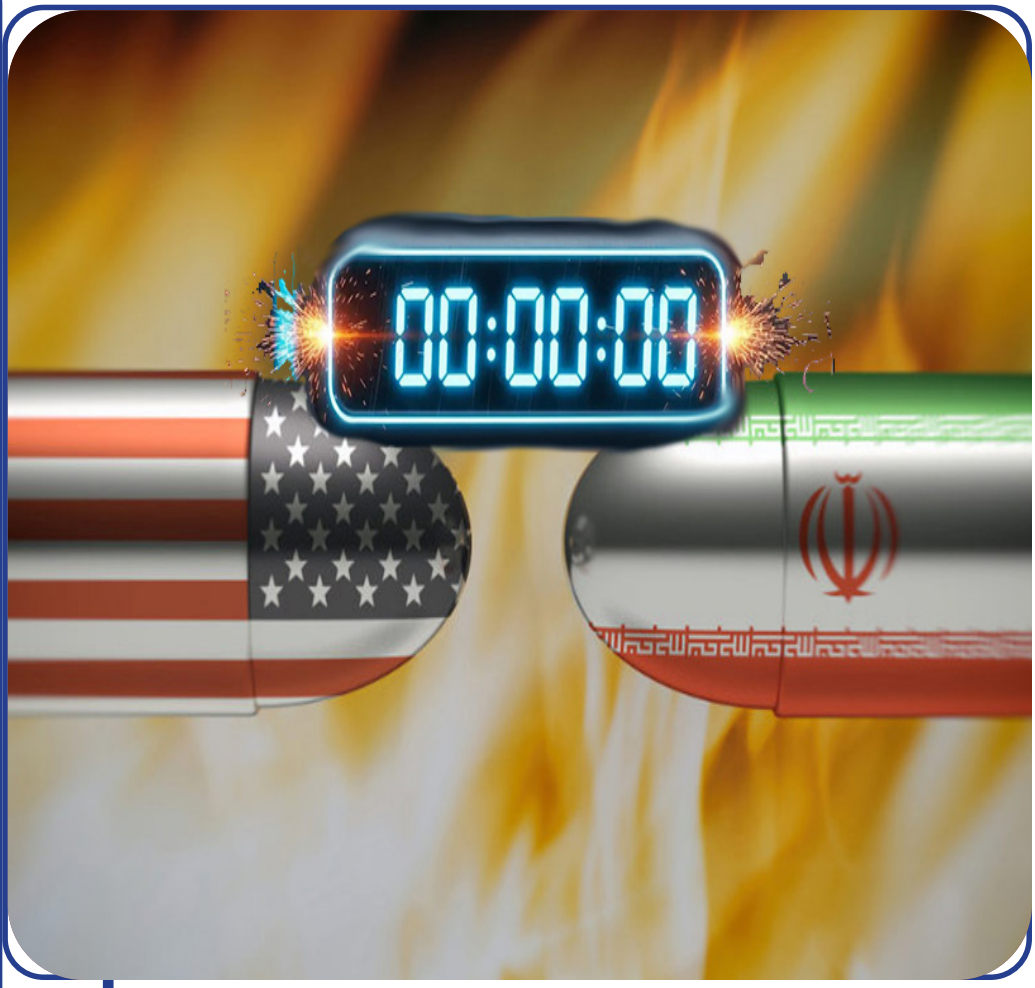

الحرب الصفرية: يا عرب ستخسرون اذا سقط النظام الايراني

ادراك كل حلفاء ايران ان هدف اسرائيل ليس تعطيل مشروع نووي او صاروخي، تعرف ان ايران ستعيد بناءه لا محالة. بل هدفها اسقاط النظام الايراني نفسه. والاتيان بنظام موال لها، وللولايات المتحدة مكانه.

فراجع الخريطة معي لتعرف ان بقاء النظام في ايران حيوي لحلفائه في موسكو وبكين واسلام أباد اكثر من كون بقاء النظام الاسرائيلي حيويا لواشنطن.

اما باكستان فحكومة الهند الحالية عدوتها، وحليفة للولاياتٍ المتحدةٍ واسرائيل. وإن نظاما مواليا لهما ـ إن حكم في طهران لا سمح الله ـ سيكون بالضرورة حليفا للهند. فتكون باكستان بين هندين اثنتين. وهو خطر وجودي عليها وعلى برنامجها النووي. فمصلحتها الحيوية، بل الوجودية، منع طهران ما يلزمها من إسناد وإمداد. وأن يكون تغيير النظام فيها دونه خرط القتاد.

واما الصين، فان نظام الامريكي الهوى في طهران، يسد عليها غرب اسيا كله. ويقطع مشروع الحزام والطريق. الذي تعتمد عليه تجارتها ونفوذها في العالم. واضعاف حليفتها اسلام اباد، يقوي الهند على بكين ايضا. وبينهما من التنافس والخصومة، بل والحروب المتعاقبة، ما لا يحتاج الى شرح.

واما روسيا، فلن تسمح بان ينقطع عنها الممر الوحيد تقريبا الى البحار غير المتجمدة، وعن الخليج العربي والمحيط الهندي بعد خسرانها في البلقان، وبعد شبه خسرانها في الشام. كما ان نظاما غربي الهوى في طهران، يهدد الوحدة الترابية الروسيه ذاتها في القوقاز، الغني بالنفط. ثم ان روسيا تستعين بالمدد الايراني في اوكرانيا. وتعتمد على حلفها مع ايران في توازنات مهمة في وسط اسيا. وفي الف ملفٍ اخر.

أقول، كما ان إنتصار إسرائيل لا يتم الا باسقاط النظام في ايران، وهو اشبه بالمستحيل، فان انتصار إيران لا يتم الا باسقاط النظام في اسرائيل وهو ممكن.

هذه حرب صفرية. لا وسط فيها. وانها لمستمرة حتى وان توقف اطلاق النار فيها غداً، او كثرت فيها الهدن.

اقول، اذا توقف اطلاق النار قبل سقوط النظام في إسرائيل فانه سيواصل سعيه لاسقاط النظام الايراني بطرق اخرى. كالدسن والاختراق والتحريض الطائفي وغيرها. فسلمُ هذا العدو حربٌ. وهو في السلم امهر واخبث. وها ان نموذج وقف اطلاق النار في لبنان واضحٌ. وقبله هدنات غزة المتعاقبة. حيث استمرت الاباده بالجوع والحصار حتى اثناء الهدنة. ففي هذه المواجهة، وعلى كل الجبهات، الهدنة ذاتها اداة من ادوات القتال. بل من ادوات الغدر والاغتيال. ولا بد من التذكير بان إسرائيل نفسها لم تنشأ الا بهدنة قبل ٧٧ عاما.

اقول ان هذه الحرب صفرية. وستستمر بطرق اخرى. اذا توقف اطلاق النار فيها الى ان يقضي احد النظامين على عدوه. وان مصلحة الامة كلها في انتصار ايران المطلق لان البديل كارثي.

ايها الناس. لقد نشبت هذه الحرب لان اسرائيل تواجه خطرين وجوديين. هما الحلف المقاوم الذي تقوده ايران والاغلبية العربية في فلسطين التاريخية. فان قضت اسرائيل على الحلف المقاوم ضرب قلبه في ايران لا سمح الله. أو إذا تحصلت على هدنة تسمح لها بالتقاط الانفاس، فانها لن تكتفي بذلك حتى تقضي على الخطر الاخر وهو الاغلبية العربية في فلسطين، وغزة راس حربتها. اذ هي اكثفها بشراً وسلاحا. فالعدو المتسلط المتغول القاضي على خصومه بالفناء، لا يحتاج الى وسطاء، ولا الى حلفاء. بل الى اتباع وثرواتهم ملء عينيه له ما له فيها من أطماع. وهي اطماع سيشاركه فيها النظام الجديد الذي يامل ان يوليه في طهران.

فتأمل، ثم ان النظام الجديد في ايران إذا قام ـ لا سمح الله ـ سيكون أقرب لاسرائيل والولايات المتحدة من اي نظام اخر في المنطقة. فعنده ما عند دول الخليج من النفط والغاز ويزيد عليها. بموقعه الاستراتيجي من روسيا والصين. وبضخامة البلد. فيقل بذلك الوزن الاستراتيجي النسبي للحلفاء والوسطاء الاخرين. والعكس بالعكس.

واذكروا ان هذا ثأر الامة العام. وان من يقدم ثأره الخاص على ثأر الامة كمن يقدم مصلحته الخاصة على مصلحة الامة. وهو ما يعرفه الناس بالخيانة، لا اقل. وان الطائفية والتفريق بيننا الان هو سهم العدو الوحيد. فقف في أي صف من الصفين تريد. واعلم ان حيادك منحة للعدو تكافئه بها على ما صنع.

ايها الناس لقد ارتكبت اسرائيل خطأها الذي ربما يكون ثاني اكبر خطأ في تاريخها، بعد خطأ تأسيسها في هذه البلاد اصلاً. إذ ربطت بقائها بهلاك محاربيها ومسالميها معاً. فلا تخطئوا انتم فتعفوها من عواقب ما جنت، لاي سبب كان. فهي لن تعفيكم اذا ملكت امركم.

ايها الناس، إنقَطَعتُ عن رسائل الحرب هذه منذ وقف اطلاق النار في لبنان. لا لشيء في رأيي. بل لان الدليل عليه لم يكن قد وقع بعد. ولا يجوز ان يدلل المرء على رأيه بوعد. فكان لابد من الانتظار الى الان.

ايها الناس، واني ما قلت ان شيئا يكون في مصر او في الشام او في فلسطين منذ ١٥ عاما إلا وكان. ان المواجهة اليوم افضل وسيلة للنجاة. ومن خاف او أجل اليوم، فلن يؤجله العدو غداً.

ديفيد هيرست

٢٠٢٦/١/٩

المصادر:

رأي ميدل إيست آي

بمواجهتها للإمارات، تعيد السعودية تشكيل الشرق الأوسط

(يشرح ديفيد هيرست، رئيس تحرير موقع «ميدل إيست آي»، كيف تُعيد الرياض تشكيل الشرق الأوسط من خلال وقوفها في وجه أبوظبي.

كانت سياسة أبوظبي الرامية إلى تعزيز المجلس الانتقالي الجنوبي في اليمن، حتى بات بإمكانه إعلان نفسه دولة مستقلة تعترف بإسرائيل، على وشك التحقق.

كل ما كان يحتاجه المجلس الانتقالي الجنوبي هو السيطرة على محافظتين شرقي البلاد، قليلتي السكان لكنهما شاسعتان جغرافياً: المهرة وحضرموت، اللتان تشكلان معاً ما يقارب نصف مساحة اليمن.

تتشارك حضرموت حدوداً مع السعودية، وكان ظهور المجلس الانتقالي الجنوبي في عاصمة المحافظة، المكلا، بمثابة جرس إنذار للرياض). كتب ديفيد هيرست الاتي:

يشهد العالم العربي تحولاً جذرياً. لا علاقة للأمر بالخلافات المؤقتة والقابلة للتسوية بين الأمراء أو الغنائم أو التحالفات. كما أنه لا علاقة له بأي من العدوين التقليديين اللذين يزعجان الحاكم العربي السني، وهما إيران وجماعة الإخوان المسلمين. لم يكن السبب وراء ذلك قيام تاجر بإضرام النار في نفسه بعد أن صادر المسؤولون عربات الطعام الخاصة به في مدينة بازيت بتونس. لم تشهد القاهرة أي مظاهرات حاشدة تطالب بإسقاط الديكتاتور. ومع ذلك، قد يكون لهذا التحول تداعيات واسعة النطاق كتلك التي أحدثها الربيع العربي قبل ١٥ عامًا.

ما يُشار إليه عادةً في الشرق الأوسط بالدول الحقيقية للعالم العربي، ونعني بذلك الدول ذات الكثافة السكانية الكبيرة، قد استيقظت على ما يحدث من حولها.

أدركت المملكة العربية السعودية والجزائر بشكل رئيسي، ولكن مصر أيضاً، أن خطة إسرائيل صراحةً والإمارات العربية المتحدة ضمنياً للهيمنة والسيطرة على نقاط الاختناق الرئيسية في المنطقة تشكل تهديداً لمصالحها الوطنية. خطة الإماراتيين الإسرائيلية بسيطة. تسيطر الدول العربية المجزأة على طرق التجارة الرئيسية مثل مضيق باب المندب بين اليمن والقرن الأفريقي. قم بإنشاء قواعد عسكرية في جميع أنحاء المنطقة وستحصل على سيطرة عسكرية ومالية مربحة لبقية القرن.

وقد أعربت إسرائيل عن هذه الخطة صراحة في خطاباتها وزياراتها العديدة. إنها الصيغة التي يستخدمونها في سوريا من خلال إنشاء محمية للدروز في جنوب سوريا ومحاولاتهم لفعل الشيء نفسه مع الأكراد في الشمال. الأمر مفتوح ومعلن. إنهم يريدون تحويل سوريا إلى ليبيا، وهي عبارة عن مجموعة من المناطق المتحاربة التي لا تخضع لسيطرة مركزية حقيقية. إنهم يحاولون اتباع السياسة نفسها من خلال الاعتراف بالأراضي الصومالية، الأمر الذي يوفر احتمال حصول إسرائيل على موطئ قدم عسكري في القرن الأفريقي لأول مرة في التاريخ. بالنسبة لأبو ظبي، فإن التجزئة أمرٌ ضمني. ينفون تمويل وتسليح قوات الدعم السريع في السودان وتغذية حرب أهلية مدمرة. وينفون أي صلة لهم بقائد قوات الدعم السريع حميدتي الخاضع لعقوبات وزارة الخزانة الأمريكية. لكن التفتيت في اليمن كان سياستهم لأكثر من عقد من الزمان. في البداية، كان الهدف هو منع جماعة الإخوان المسلمين من الاستيلاء على السلطة بعد انهيار الديكتاتور اليمني. ثم جاء سقوط العاصمة صنعاء في يد جماعة أنصار الله، الحوثيين. وفرت كل حملة غطاءً لهدفها الحقيقي، وهو تمويل وتسليح وإقامة دولة انفصالية في جنوب اليمن تحت راية المجلس الانتقالي الجنوبي في عدن. هذا المشروع ليس جديداً، لكن تم تسريعه بشكل كبير من قبل محمد بن زيد، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، الذي هو العقل المدبر وراء كل ما تفعله هذه الإمارة. كاد بن زايد أن يفلت بفعلته. كانت سياسة أبو ظبي المتمثلة في جعل المجلس الانتقالي الجنوبي قوياً عسكرياً لدرجة تمكنه من إعلان نفسه دولة مستقلة تعترف بإسرائيل على وشك أن تصبح حقيقة واقعة. كل ما احتاج إليه المجلس الانتقالي الجنوبي هو السيطرة على مقاطعتين صغيرتين من حيث عدد السكان ولكنهما كبيرتان جغرافيا في شرق البلاد. ولايتا المهرة وحضرموت اللتان تشكلان ما يقرب من نصف مساحة اليمن.

لكن هنا ارتكب بن زايد خطأه القاتل. لقد تجاوز الحد. لقد بالغ في تقدير قدراته. غضب حاكم المملكة العربية السعودية. لقد كان ذلك بمثابة جرس إنذار كانت المملكة العربية السعودية بحاجة إليه. لقد سقطت الحواجز من السعودية. شعروا بأنهم محاصرون، وإذا لم يتحركوا الآن، فقد تصبح المملكة نفسها الهدف التالي لسياسة التفتيت التي يتم تنفيذها من حولهم. دولةٌ لطالما مارست سياستها الخارجية ببطء، لكنها هنا لجأت إلى السلاح.

دعمت السعودية هجوماً مضاداً شنته القوات اليمنية الموالية للحكومة المعترف بها دولياً لاستعادة حضرموت والمهرة. تعرضت المكلا للقصف واضطرت قوات المجلس الانتقالي الجنوبي إلى الانسحاب. وبعد ثلاثة أيام، عندما أصبحت إسرائيل أول دولة تعترف رسمياً بـ«أرض الصومال» كدولة ذات سيادة، تأكدت مخاوف السعودية من أنها محاصرة. جاء سقوط عقد من العمل الدؤوب الذي قامت به أبوظبي في غضون أيام قليلة. عندما قصفت السعودية شحنة أسلحة ومركبات في ميناء المكلا، فقد وجهت انتقاداً مباشراً لدور الإمارات في تسليح الانفصاليين الجنوبيين. وبعد ساعات، أعلنت أبو ظبي سحب قواتها من اليمن. بل إنها تخلت عن جزيرة سومطرا. في غضون ساعات قليلة، انهار كل العمل والتخطيط والتمويل الذي تم إنجازه خلال العقد الماضي. هكذا يتغير الشرق الأوسط. ليس من خلال جلسات التصوير المصممة في المكتب البيضاوي، ولا من خلال تصريحات الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بأنه غيّر ٣٠٠٠ عام من التاريخ، والتي تم رفضها باعتبارها سخيفة قبل أن ينطق بها. ليس من خلال اتفاقيات تبدو ضخمة ولكنها في الواقع ساخرة للغاية مثل اتفاقيات أبراهام، بل من خلال انهيارات مفاجئة وصامتة. اتُهم الزبيدي، زعيم المجلس الانتقالي الجنوبي، بالخيانة من قبل المجلس القيادي الرئاسي الذي كان هو وأتباعه جزءًا منه. لقد اختفى لمدة ٢٤ ساعة. وقد اتهمت السعودية منذ ذلك الحين الإمارات العربية المتحدة بتدبير عملية سرية لإخراج العبيدي من اليمن. كان ذلك أسوأ يوم على الإطلاق بالنسبة لأحلام مدينة سبارتا الصغيرة في السيطرة على المنطقة في الذاكرة الحية. انفجرت وسائل التواصل الاجتماعي السعودية، التي تمثل الصوت الرسمي للمملكة والخاضع لرقابة مشددة، غضباً. نشر أحد المنشورات صورة لطائرة سعودية من طراز إف-١٦ تحلق في السماء على أنغام أغنية باللغة الإنجليزية، وقد انتشر المنشور بشكل واسع.

تقول كلمات الأغنية: «من هددنا بالأسود في عرينها، اقتحمنا العرين ولم نجد أحدًا هناك». «مازي الثاني»، لقب مؤسس المملكة الملك عبد العزيز، والذي يُطلق الآن على محمد بن سلمان، لا يشبهه أحد. إنه لا يشبه إلا جده ووالده. وقد أخمد «مازي» الفتنة التي أشعلها الشيطان في مهدها. هذه الكلمات واضحة لا لبس فيها. الرسالة جلية. الشيطان الآن هو محمد بن زايد. وهكذا يصفه جاره وحليفه السابق. إنه تحول جذري، وأعتقد أنه تحول حتمي. ليس من الممكن إصلاحه. الكامل في سلم العائلة المالكة السعودية إلى جاره الإماراتي الذي وظّف آلته السياسية القوية. في واشنطن العاصمة تحت تصرفه. كان بنيدة العقل المدبر وراء استراتيجية جعل الأمير الجديد مواليًا لإسرائيل. رتب اجتماعات سرية بين المدعي للعرش ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو. لكن في نهاية المطاف، كان الخلاف بين المرشد والتلميذ مسألة وقت لا أكثر. لم يتغير لا محمد بن سلمان ولا حاشيته. ما زالوا نفس الأشخاص. لن يترددوا لحظة في التخلص من المعارضين السعوديين. حقوق الإنسان لا تؤرقهم. العديد من التغريدات التي تهاجم الخطة الإماراتية ينشرها شخص يُدعى كولومبوس، والذي يُعتقد أنه سعود الكتاني، الرجل الذي أشرف على تدبير اغتيال الصحفي السعودي جمال كشوجي في القنصلية بإسطنبول. من اللافت للنظر أنه في خضم العمل السعودي الحاسم في اليمن، دعا الملك السعودي وولي العهد إلى حملة وطنية سعودية للتبرع للفلسطينيين. جمعت الحملة ٧٠٠ مليون ريال وما زالت مستمرة.

إذن، لم يتغير من يديرون المملكة. تحالف اماراتي اسرائيلي يهدد الجميع، لكن ما تغير هو أنهم أدركوا أخيرًا أن الإماراتي و تُشكل المخططات الإقليمية الإسرائيلية تهديدًا لسيادة المملكة العربية السعودية ومملكتها، وهذا خط أحمر بالنسبة لأي نخبة حاكمة سعودية. يعلم محمد بن زايد أنه لا يستطيع العبث مع جاره. يبلغ عدد سكان السعودية ٣٥,٥ مليون نسمة، بينما يبلغ عدد سكان الإمارات ١٠ ملايين نسمة، لكن مليونًا منهم فقط مواطنون. انتهى الكلام. يجب أن يرحب كل من يسعى للخروج من دوامة التدخلات الأمريكية الفاشلة والاحتلال الإسرائيلي الدائم في الشرق الأوسط بصحوة الرأي العام السعودية.

صحيح أن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب لا يزال يمتلك القوة العسكرية المطلقة، وصحيح أيضًا أنه لا يوجد ما يمنع بنيامين نتنياهو من مواصلة الحرب والاحتلال في غزة وجنوب لبنان وجنوب سوريا إلى الأبد. تستطيع أمريكا في عهد ترامب اختطاف رئيس فنزويلا، وإنزال سرية من القوات الخاصة في غرينلاند، ورفع علم على الجليد، وإعلانها أرضًا ذات سيادة أمريكية. يستطيع ترامب قصف إيران للمرة الثانية أو الثالثة، وتدمير أي اقتصاد في العالم إن لم يتعاون. لا أحد ينكر ذلك. لكن ما لا يستطيع هو ولا نتنياهو فعله هو التعامل مع عواقب غزواتهم. تمامًا كما لم يستطع جورج بوش إيقاف سبع سنوات من الحرب الأهلية بعد غزوه للعراق، لا تحتاج المملكة العربية السعودية إلى الرد بالمثل على خطط إسرائيل الواضحة والصريحة للهيمنة الإقليمية، ولن تفعل ذلك. لكن بإمكانها أن تبدأ في جعل الحياة صعبة للغاية على الإمارات وإسرائيل، وهما دولتان صغيرتان تُشبهان الإسبرطيين، واللتان تزرعان بذور الحرب الأهلية والصراع في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

لقد بالغت أمريكا وإسرائيل في تقدير قدراتهما، فربحتا كل معركة بدأتاها، لكنهما خسرتا كل حرب.

تغريدة ترامب الأخيرة التي قال فيها إن الفنزويليين لا يمكنهم شراء البضائع الأمريكية إلا بأموال النفط التي ستستعيدها أمريكا منهم، هي نموذج لرئيس مهووس بالسلطة. هل نظر ترامب إلى الخريطة؟ فنزويلا ضعف مساحة العراق، وهي مغطاة بالغابات في معظمها، وشعبها مُسلّح حتى الأسنان. يعتقد ترامب ونتنياهو أنهما يستطيعان فعل ما يريدان وقتما يريدان. لقد حان الوقت منذ زمن طويل لأن يقف زعيم عربي في وجههما ويقول لهما كفى.

«الدولة الوطنية/ القومية»: تمكين الغرب، وتمزيق الشرق

السيد عادل عبد المهدي

١٥-١-٢٠٢٦

يثير الكلام عن دور الدول العربية والاسلامية في التطبيع مع العدو الاسرائيلي، او وقوف بعض هذه الدول ضد المقاومة الفلسطينية، والقوى المساندة لها، وتماهي تلك الدول مع الكيان الصهيوني، بل تصدي بعضها للمسيرات والصواريخ التي اطلقها اليمن أو العراق او الجمهورية الاسلامية دفاعاً عن انفسهم ونصرة لفلسطين، وبالعكس مساعدة بعضهم الكيان الصهيوني في اعماله العدوانية، نقول يثير ذلك كله نقاشاً حول شرعية او عدم شرعية الدول لدينا في القيام بهذه الاعمال. خصوصاً انه تم مؤخراً طرح موضوع حصر السلاح بيد الدولة على نطاق واسع. في عدد من الدول مثل لبنان والعراق وفلسطين وغيرهم. وهو طرح لا يقصد به نزع السلاح من اعداء الدولة الحقيقيين من ارهابيين او قوى اجنبية، بل من قوى المقاومة فقط. تلك القوى التي كانت هي في مقدمة الصفوف لتحرير الارض والدفاع عن الوطن والدولة. فأين نموضع شرعية او صلاحية الدولة في عالمنا العربي والاسلامي من هذه الطروحات. وما هي بناءاتها التاريخية والحالية. إذ بدون تعريف شرعية وصلاحية الدولة وما تستبطنه من مصالح وطنية وغير وطنية وحقها في التصرف بحقوق شعوبها وقضاياهم المصيرية، سيكون من الصعب تشخيص صلاحية ومواقف المقاومة منها، ومن حقوق الاوطان ومواطنيها.

ويمكن تلخيص سمات «الدولة الوطنية Nation State»، كما تطورت في الغرب أو الشمال بسمات أهمها:

١- الانتقال من النظام الإمبراطوري إلى النظام السيادي الملكي او الجمهوري: فحلت «الدولة القومية» محل الإمبراطوريات متعددة القوميات، التي كانت تحكم بالحق الإلهي أو الوراثي.

٢- مبدأ السيادة الوطنية: ظهر مفهوم السيادة النابع من الوطن/الشعب، وليس من الحاكم أو الدين.

٣- المواطنة المتساوية: ولاء المواطنين للدولة بدلاً من الولاءات المحلية أو العائلية أو الدينية. فالدولة يكون فيها مواطنة وجنسية وهوية وقوانين وسلطات حاكمة على كل جغرافيتها.

٤- الحدود الواضحة: تحديد حدود ثابتة بناءً على هوية قومية، بدلاً من مناطق النفوذ المتغيرة.

٥- السيادة الإقليمية: سيطرة حصرية على إقليم محدد بحدود معترف بها دولياً.

٦- الاعتراف الدولي: القبول من دول أخرى بشرعية الدولة وحدودها.

٧- شرعية جديدة: قائمة على تمثيل الإرادة الشعبية (ولو نظرياً)، بدلاً من الشرعية الدينية أو التقليدية.

٨- الشعب/المجتمع: مجموعة بشرية تشترك في هوية واحدة (قد تكون عرقية، لغوية، ثقافية، تاريخية، عقدية).

٩- الحكومة المركزية: جهاز إداري موحد يمارس السلطة على كامل الوطن.

١٠- الاحتكار المشروع للقوة: احتكار استخدام القوة المشروع سواء داخل الوطن، او في الحرب للدفاع عنه.

١١- توحيد الهوية الوطنية: غالباً عبر أنظمة التعليم والإعلام والخدمة العسكرية والرياضة والسفر، الخ.

المراحل الاربع الافتراضية لتطور فكرة الدولة في اوروبا وانعكاسـها لبقية العـالم: وضعنا هـذه المراحل الاربع افتراضياً لتسهيل التمييز بين مراحل عمـل ومهـام الدولـة القومية في الغرب أو الشمال. فما هو اساسي في مرحلة قد يتحـول الى ثانوي في اخرى، والعكس صحيح ايضـاً. كما اجرينا مقارنة أولية مختصرة بانعكاساتها في بقية المعمورة أو الجنوب.

١-ولادة الدولة القومية:

- **فـي الشـمال،** نظريـات هوبـز (١٥٨٨-١٦٧٩) والانتقـال من «الحق الالهـي» الى السـيادة الوطنية (معاهدة ويسـتفاليا ١٦٤٨)، ومونتسـكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) وفصـل السـلطات، وجان جـاك روسـو (١٧١٢-١٧٧٨) والعقد الاجتماعي، ومن سبقهم او على يمينهم او يسارهم، مثل هيغل (١٧٧٠-١٨٣١) والديالكتيـك المثالـي وحكـم العقـل، وماركـس (١٨١٨-١٨٨٣) وانجلـز (١٨٢٠-١٨٩٥) والديالكتيك المـادي وحتميـة التاريـخ ودكتاتورية البورجوازيـة ودكتاتورية البروليتاريا، وأن الدولـة فـي جوهرها هـي الحرب والمال. فالدولة في كل هذه الاطروحات هـي الماسـكة للقوة، تكتسـب شـرعية إسـمية او حقيقيـة من الشـعب/الوطن، وهي التي ستمثله وتنطق باسمه.

- **في الجنوب** (الاسـتعمار والاحتلال والاسـتيطان المباشـر ونظام العبودية والإبـادات الجماعيـة، الـخ): وفرض الحـدود المصطنعـة (مؤتمـر برلين ١٨٨٤ لافريقيا، وسـايكس بيكو لبلدان المشـرق العربـي (١٩١٦)، دون أي عقـد اجتماعـي. الدولـة هنا هـي أداة إدارية سـلطوية لإدارة المسـتعمرات، هدفها خدمة الاقتصاد الغربي. والسيادة مفقـودة تماماً. والشـرعية مسـتمدة من القوة العسكرية الاسـتعمارية والقبضة الحديديـة، وليـس مـن الارادة الحـرة للشعوب.

٢- دول المؤسسـات وعصبة الأمم: فيمـا بين نهايـة الحربـين العالميتين الاولى والثانيـة (١٩١٩-١٩٤٥) حيث جـرى حوكمة العلاقات الدولية عبر حكم الامم المنتصرة في العالم.

- **ففي الشـمال** ترسـخ نموذج الدولة الوطنية المؤسساتية. وفيها كانت الدولة هي الوحيدة التي تملك القوة (أي حصر السـلاح) على كامـل اراضيها (ماكس فيبـر ١٨٦٤-١٩٢٠) عبر بيروقراطية عقلانيـة، واحتـكار شـرعي للعنف). والبـدء بالاندمـاج الحقيقـي والنهائـي بيـن الحركـة الصهيونيـة والحركـة الاسـتعمارية، كمـا مثلتـه بريطانيـا وانصارهـا وتياراتهـا، او الاسـتمرار علـى الـرؤى القديمة العدائيـة للتعامل مـع اليهود كما مثلتـه ألمانيا وانصارها وتياراتها.

- **في الجنوب:** جرى تطبيق الانتداب والوصاية بدلاً من الاسـتعمار المباشر ودول أشباه المؤسسات. وبذلك تم إلباس الهيمنـة ثوباً قانونياً وأخلاقياً وشـرعية دوليـة. والدولـة هنا بعـد اقتطاعها من فضائها وتمزيق اوصالها هي مشـروع قيـد التكويـن، تحـت إشـراف السـيد الاسـتعماري، مع بناء مؤسسات محلية ضعيفة تخدم الاستمرارية الاستعمارية.

٣- دول الأمم المتحدة ومجلس الأمن: منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥.

- **ففي الشمال** سادت هيمنة النموذج الليبرالي بقيادة الولايات المتحدة. إذ أُريد للامم المتحدة ومجلس أمنها ان يكونا إطاراً للحوكمة العالمية. بما يعكس هيمنة المنتصرين (حاملي حق النقض). فتصل الدولة الغربية الى ذروة قوتها المؤسساتية والسعي لفرض شرعيتها عبر قوانين عالمية يقبلها الجميع او تفرض عليه. لتزداد الفجوة بين الغرب أو الشمال وتطوره نحو مجتمعات الرفاه والمجتمعات الاستهلاكية العالية المستويات. والشرق أو الجنوب نحو الانسدادات والافقار والتخلف. فتتفاوت المداخيل وانماط الحياة وهيمنة الدولار المغطى جزئياً بالذهب ثم التخلي عن اي ارتباط له بأي اصل او معدن، ويتعاظم دور البنوك المهيمنة والشركات العابرة للقارات والمنظمات التي تسيطر عليها الدولة الاستعمارية. ويشيع عالم الصور والاوهام عبر السينما والاعلام والمسلسلات ووسائط النقل الحديثة وسهولة انتقال الصور من العالم الغربي الى بقية اجزاء العالم، الخ.

- **في الجنوب** اي الدول المستقلة اسمياً: سنشهد مرحلة الاستقلال النسبي والسيادة القانونية في مساحات مسيطر عليها. وفقدانها في المساحات الاساسية والحاسمة. ونيل العضوية في الامم المتحدة ومعظم المنظمات الدولية. لكن في المقاعد الخلفية إن صح التعبير. والاسباب هي:

• اقتصاد مرتبط بنظام بريتون وودز (النظام الذي ربط العملات بالدولار، وربط الدولار بالذهب بسعر ثابت) وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي وشبكات المال والاعلام والثقافة العالمية. لتصبح الحياة والصور المنقولة من الغرب المتخم بالحقوق والرفاه دافعاً لانحرافات مفاهيمية وعملية ومطلبية ورغبوية لا حدود لها في الداخل، تسعى للهجرة الى الخارج او التمرد. اعتقاداً انها بالركض وراء سراب التجربة الغربية ستصل الى النتائج التي وصل اليها الغرب، متناسين العامل القهري والاستعماري والاستعبادي والاستغلالي الذي توفر للغرب أو الشمال، ولا يتوفر للشرق او الجنوب.

• سياسات ضعيفة ومتورطة في الحرب الباردة، طالما تقف فيها ما كان يسمى بدول العالم الثالث مع المعتدي المهيمن والمستعمر، ضد بلدٍ من بلدان العالم الثالث الاخرى.

• هيكلياً، إذ ورثت هذه الدول حدوداً ومؤسسات استعمارية لم تتطور عضوياً، بل اصطناعياً. وهنا تظهر الدولة «الهشة» أو «المجوفة» او الدولة الريعية التي تعتمد على عوائد تصدير المواد الخام.

• أمنياً، ومن حيث الاستقرار الوطني. بتصاعد الصراعات والحروب مع الجيران على قطعة من الحدود او بين مكونات قومية او دينية او مذهبية متنافرة. مما يطلق فتناً وحروباً أهلية. ستتدخل فيها الدول المهيمنة والمستعمِرة التي انشأت هذه الحدود، بوصفها الناصح والحكّم المحايد، وهو ما يزيد من مكانتها وقوتها، ليزيد بالمقابل من ضعف الدولة الوطنية، ويوغل في تمزيقها.

٤- الدولة النيوليبرالية والعولمة:

- **في الشمال** منذ سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. والتي شهدت انحسار دولة الرفاه وتغول الرأسمالية المالية العالمية (ليس العقارية او التجارية او الصناعية بل المالية كأعلى مراحل الرأسمالية). لتتحول الدولة هنا الى «دولة حارسة» للسوق. فتتفكك سيادتها الاقتصادية لصالح الشركات العابرة للقوميات والمؤسسات المالية وكبار اثرياء العالم. وتخرج الدولة هنا نفسها من قيود القانون الدولي او المواثيق الدولية، بما فيها الامم المتحدة ومنظماتها. وتصبح سلطاتها اعلى من اي سلطة اخرى. وتتحول مجاميع السبعة الكبار او العشرين الكبار لتكون هي الحاكمة الفعلية للعالم. بل تتحول الولايات المتحدة و«اسرائيل» لتكونا هما الحاكمان الرئيسيان للعالم. يُخضعان الاخرين لكنهما لا يخضعان لأية ضوابط او اعراف أو اخلاق او أحكام المحاكم والقرارات والمؤسسات التي تم انشائها من قبلهم في مرحلة سابقة. ليتحول كل شيء لاهواء شخصية مضحكة/مبكية وبطولات «رامبوية»، يمثلها ترامب ونتنياهو وامثالهما.

- **أما في الجنوب** فان «الدولة الوطنية/القومية» المجوفة ستفقد اموراً أساسية هي موضع نقاشاتنا اللاحقة.

مكاسب الغرب أو الشمال من نشأة «الدولة الوطنية» منها

١- القضاء على الاقطاعات القديمة المبعثرة الاهداف وقيام كيانات فيها مواثيق تقترب بعضها من البعض الاخر.

٢- بناء مراكز قرار ذات ابعاد عالمية تمتلك الطاقات والقدرات لا لاخضاع الداخل فقط، بل اساساً لاخضاع بقية الشعوب والقارات.

٣- قيام شراكة بين الدولة والكنيسة ورأس المال، والقدرة على وضع قواعد جديدة لادارة المكاسب العظيمة التي بدأت اوروبا بتحقيقها لنفسها على حساب الاخرين. مما مهد لاطلاق ديناميكيات داخلية في شتى الشؤون الاقتصادية والعلمية والثقافية والتنظيمية والعسكرية، الخ.

٤- مع الحركة المركنتلية Mercantilism قامت بتوحيد الاسواق العالمية عبر سياسة «دعه يعمل.. دعه يمر». فمع وجود الكيانات المتعددة التي لكل منها قوانينها وأنماط تعاملها توحدت الى حد كبير المصالح الاساسية. مما سهل عمليات العبور ووحدة الاسواق. وايجاد طرق جديدة للوصول الى الصين والهند وأعماق اسيا بالالتفاف غرباً عِبر الامريكيتين، لتجاوز الفضاء الاسلامي، او عبر رأس الرجاء الصالح. وهو ما قاد لما سُمّي بحركة الاستكشافات. التي هي في محصلتها حركة الاستيطان واستعمار القارات الجديدة. واضعة اليد على ثرواتها وكنوزها وموارها الطبيعية. مما اكسبها موارد وقوى جديدة استُخدمت لتعزيز تقدمها وغزوها للجنوب والشرق.

٥- قيام نظرة موحدة للعالم الخارجي (الشرق او الجنوب) باعتباره عالماً بربرياً متوحشاً قابلاً للغزو والاستيلاء عليه. وان مركز الحضارة والانسانية هو اوروبا والغرب والشمال.

٦- الثورة الصناعية والعلمية وفصل الدين عن الدولة.

٧- تطور قوانين الحروب ومفاهيم الاقتصاد والدبلوماسية والسيطرة على الموارد العالمية.

الارتباط العضوي بين الدولة الوطنية الغربية والاستعمار والصهيونية

هناك ارتباط جوهري وليس عرضياً بين كل من الدولة الوطنية والاستعمار والحركة الصهيونية. صحيح ان الدولة حملت الكثير من الرؤى المتطورة عن الرؤى القديمة. ولكن كأي رؤية لا تضع لنفسها حدوداً فانها تتحول بالضد منها. فهي دولة تضخمية سرطانية توسعية احتالية احلالية بكل الابعاد والعناوين. تضخمية في هيمنتها وسيطرتها على العالم لمصلحة قلة قليلة من العنصر البشري. تضخمية في نهمها وسعيها للغنى والثراء والرفاه والتهتك وصولاً الى اللذات البشرية القصوى، على حساب القيم والاخلاق والحفاظ على النوع البشري، وعبر إفقار بقية الشعوب وحرمانها. تضخمية في الاستيلاء على حقوق الآخرين وأراضيهم وثرواتهم. تضخمية في تدمير الذات البشرية والابادة الجماعية ومقومات الطبيعة والحياة على الكرة الارضية، وقس على ذلك. لتتحول هذه الاهداف من «نتائج» الى «مقومات» للدولة كما نراها اليوم. وهذه بعض الاتجاهات التي وسمت الدولة المعاصرة والتي اصبحت جزءاً عضوياً من طبيعتها:

١- التمويل والتوسع الاقتصادي. إذ تطلبت الثورة الصناعية أسواقاً خارجية للمنتجات وموادَ خام رخيصة.

٢- وحدت الدولة القومية المركزية القوية الجهود الاستعمارية (مقارنة بالشركات والتيارات المستقلة).

٣- نهب ثروات المستعمرات كلها (ذهب امريكا الشمالية، وفضة أمريكا اللاتينية، ومنسوجات وثروات آسيا، وعبيد وثروات أفريقيا، ونفط الشرق، الخ) والتي موّلت بناء الدولة الحديثة في أوروبا.

٤- التنافس بين الدول القومية كقوة دافعة لتوفير طاقات اعظم للوصول الى مكاسب اعلى باسرع الاوقات.

٥- صعود البروتستانية بالضد من الكاثوليكية او لاحقاً متحالفة معها (إنجلترا وهولندا ولاحقاً المانيا والولايات المتحدة البروتستانية، في قبال إسبانيا والبرتغال، ولاحقاً فرنسا وايطاليا الكاثوليكية)

٦- سباق الاستكشافات للقارات الاخرى سمح بامتلاك مستعمرات واسعة بثروات وامكانيات عظيمة. كما قاد سباق التسلح البحري إلى إكتشاف طرق تجارية جديدة، وتقنيات جديدة لم تكن معروفة.

٧- المؤتمرات الاستعمارية الأوروبية (مثل مؤتمر برلين ١٨٨٤ لتقسيم أفريقيا) بين دول غربية تتفق على تقاسم العالم.

٨- الأسس الأيديولوجية المشتركة التي لم تقتصر على العقيدة فقط، بل تعدّت إلى مواجهة بقية العالم والسيطرة عليه.

٩- العرقية العلمانية وفكرة «الحملة الحضارية»، كما يبرز واضحاً حتى في خطاب مسؤولي الاتحاد الاوروبي اليوم في الكلام عن بستان اوروبي» جميل محاط بادغال خطيرة يجب الوقوف بوجهها. (العبارة الشهيرة لوزير خارجية الاتحاد الأوروبي جوزيب بوريل في عام ٢٠٢٢)

١٠- داروينيَّة اجتماعية تشير لتفوق الجنس الأبيض كمبرر للاستعمار والإبادات الجماعية.

١١- المركزية الأوروبية باعتبار أوروبا مركز العالم، وان قيادته للعالم هي قدر تاريخي.

١٢- التنظيم العالمي وفق الرؤية الأوروبية.

١٣- معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) التي وضعت الأسس لإنهاء الحروب الدينية بين الدول الأوروبية. معاهدة تخص دول القارة الاوروبية دون بقية القارات، والتي اعتبرت شعوبها مجموعات «بربرية» و«متوحشة». وهي من أرسى المبادىء الأساسية للعلاقات الدولية الحديثة. وابرزها سيادة الدولة القومية ومبدأ الحرية الدينية.

١٤. عصبة الأمم (١٩١٩) كمنظمة للدول «المتحضرة» تكرس هيمنة المنتصرين.

١٥. الأمم المتحدة (١٩٤٥) كمؤسسة تعكس توازن القوى بعد الحرب العالمية الثانية مع بقاء حق النقض (الفيتو) للقوى الاستعمارية السابقة.

١٦- الحركة الصهيونية جزء لا يتجزأ من هذه الحركة. فأوروبا كانت تعيش سلسلة من الازمات احداها ما سمي بـ«المسألة اليهودية» التي شأنها شأن المسألة «البلقانية» و«الايرلندية» و«العثمانية». فتم التعامل مع يهود اوروبا باحتواء احياناً وعداء وعنصرية في احيان اخرى. وان ترحيل المسألة الى الخارج بالوعد بوطن قومي لليهود (بريطانيا) هو جزء من الحل والعجز عن ايجاد حل داخلي (المانيا والهولكوست)، للسعي في ان تتحول القضية اليهودية من عبء داخلي، إلى إضافة خارجية وحليف للمشروع الاستعماري.

محفزات انتقال الدولة القومية للشرق ولغرب اسيا وبقية القارات

كنظرة عامة، جاء الانتقال ومحفزاته نتيجة عدة عوامل داخلية وخارجية منها:

١- أفكار الحداثة والنهضة الاوروبية:

جاءت البذور الأولى من داخل الامبراطورية العثمانية نفسها عبر سلسلة الإصلاحات التنظيمية في (١٨٣٩-١٨٧٦) التي حاولت تحديث الدولة العثمانية على النمط الأوروبي المركزي. هذه الإصلاحات عززت مفهوم المواطنة العثمانية (المواطن/الرعية) على حساب الهويات التقليدية الدينية والطائفية. ففتحت الباب بشكل غير مباشر لتفكير النخب في هياكل سياسية حديثة.

• تأثرت النخب العربية والتركية والايرانية بالفكر القومي الأوروبي (خصوصاً الألماني والإيطالي والفرنسي) خلال دراستهم في أوروبا أو عبر الترجمة أو الانتماء للحركات الماسونية. وساهمت مجلات مثل «المقتطف» و«الهلال» و«العروة الوثقى» و«القانون» في نقل هذه الافكار.

٢- دور النخب المحلية كمحرك داخلي:

• في تركيا نشأت حركة القومية الطورانية/التركية بين المثقفين العثمانيين (مثل جمعية الاتحاد والترقي)، كرد فعل على تآكل الإمبراطورية، وكمشروع للإنقاذ. وتحولت الى ايديولوجية للدولة تحت قيادة مصطفى كمال اتاتورك، الذي فرض نموذج الدولة القومية العلمانية الحديثة بقوة من اعلى.

• في العالم العربي ظهرت الجمعيات القومية العربية السرية (جمعية الفتاة العربية، حزب اللامركزية) بين النخب السورية واللبنانية، مدفوعة باضطهاد جمعية الاتحاد والترقي واحياء التراث العربي (حركات النهضة والبعث). والتي طالبت بالاستقلال الذاتي او الدولة العربية المستقلة تحت راية الشريف حسين أو خارجها لاحقاً.

• في ايران كانت القومية أو الهوية الفارسية موجودة بما تمثله من عوامل للوعي التاريخي-الثقافي، ولكنها تعززت في عهد السلالة البهلوية (رضا شاه) كأداة لتحديث ايران وخلق هوية موحدة في مواجهة النفوذين الروسي والبريطاني، ومحاولة استعادة أمجاد الإمبراطورية الفارسية القديمة.

٣- دور الاستعمار كقوة خارجية وحاسمة ومفصلية:

• وهو العامل الحاسم في رسم الخرائط والسياقات الجديدة. فالنخب المحلية استوردت بعض الافكار، لكن الاستعمار هو من فرض الحدود والكيانات بشكل تعسفي غالباً. كانت مصالح القوى الاستعمارية (بريطانيا وفرنسا) هي المعيار الأساس لتقسيم المنطقة، وليس الإرادة المحلية أو الحقائق الاجتماعية او التاريخية.

• استغلت هذه القوى وعود الاستقلال مثل مراسلات الشريف حسين بن علي، والسير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر (١٩١٥-١٩١٦)، واتفاقية فيصل الأول-وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية (١٩١٩) لدق اسفين بين العرب والعثمانيين. وإعطاء تسهيلات لليهود في فلسطين. والتي انتجت اتفاقات سايكس-بيكو-سازونوف (قبل انسحاب روسيا بسبب الثورة البلشفية) في ١٩١٦ لتقسيم وتجزئة المنطقة، ووعد بلفور في ١٩١٧ لتأسيس الكيان الصهيوني.

• بعد الحرب العالمية الاولى فرضت معاهدات الانتداب (سان ريمو ١٩٢٠) وتوزيع ولايات الانتداب على القوى الاستعمارية بشكل «رسمي». ومعاهدة سيفر (١٩٢٠) التي قسمت الاناضول، ثم معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي أقرت وجود دولة قومية تركية صغرى تحت قيادة اتاتورك، وألغت الخلافة. وصكوك عصبة الأمم كاطار قانوني دولي لفرض الهيمنة. مما منح هذه الدول احدى أهم سمات «الدولة الوطنية/القومية» وهو اعتراف الاخرين. وبالتالي إعطاء الطابع «الشرعي» الدولي. وهكذا تم تقنين مفهوم «الشرعية الدولية» التي تصاغ سياساتها وقراراتها ليس من دول العالم او الشعوب بل من قِبل بضعة من الدول. لتتكلم لاحقاً باسم الاسرة الدولية والاجماع الدولي والمجتمع الدولي والرأي العام العالمي.

٤- ضعف الكيانات والهياكل المحلية:

• كان النظام العثماني في مراحله الاخيرة نظاماً متهالكاً إدارياً واقتصادياً وعسكرياً. مع فشل مشروع المواطنة العثمانية في خلق ولاء موحد.

كانت الهويات السائدة قبل «الدولة الوطنية/القومية» هي هويات دينية، طائفية، وراثية، وعشائرية ذات طابع محلي وإقليمي قائم على الزعامات والولاءات الشخصية. هذه الهويات تمتعت بالمرونة، إلا أنها عجزت عن تشكيل كيانات سياسية قوية وحديثة قادرة على مواجهة التحديات الاستعمارية، مما خلق فراغاً سعى نموذج «الدولة الوطنية/القومية» لملئه، وإن بشكل هش.

النتائج المدمرة لانتقال فكرة «الدولة الوطنية/القومية» للعالمين العربي والاسلامي:

١- فرض الحدود والهويات:

الحدود والكيانات والهويات الجديدة قادت عملياً لتمزيق الوحدة المجتمعية والقيمية لهذه الشعوب والبلدان. فعدا تصارع الهويات الكبيرة القومية والمذهبية والدينية فيما بينها، يحصل ايضاً سعي للتنقيب عن هويات وثقافات مضمورة لوضعها في وجه هويات وثقافات قائمة لخلق الفتنة والانقسام. فأمام تقطيع وتمزيق الفضاءات التاريخية، وفرض الحدود والسيادات حسب المصالح الاستعمارية، طرحت مفاهيم القومية والمذهبية والأديان باشكال لا سبيل امامها سوى التصادم والصراع والمزيد من الانقسامات. كل ذلك بدل الفضاءات المفتوحة والتشكيلات السياسية/الاجتماعية/الاقتصادية التي عرفتها بلداننا لقرون طويلة والتي كانت تمنح مرونة للتكيف والتعايش حتى مع اختلاف الاديان والمذهاب والقومية. ونحن هنا لا نجمّل شيئاً ولا ندافع عن جميع نماذج التشكيلات التقليدية، بل نقارن ونقول، بان ما فرض علينا هو اسوأ مما كان متوفراً لدينا. فرغم العديد من السلبيات التقليدية التي كانت بحاجة لاصلاحات جوهرية، إلا انه كان يمنح الفرصة لهويات عديدة أن تعبر عن نفسها وتبني تشكيلاتها بمرونة تسمح بالعيش المشترك والحفاظ على الفضاء الواحد. بينما لا تترك النماذج المعاصرة للدولة الوطنية/القومية امامنا سوى امرين:

اما الاستنجاد بالاجنبي لمواجهة أبناء التاريخ والأوطان والفضاء المشترك، او للتحارب والتصادم سواء لقهر الهوية الاخرى، او لسعي الهوية الاخرى لحماية نفسها.

٢- تمزيق الاوصال:

تعطيل وتمزيق طرق التجارة والانتاج، واضعاف الاسواق والتبادل، وضياع الخبرات وانماط الحياة والعمران والعمل. فالموجة الجديدة لم تراكم الأيجابي الجديد على الأيجابي القديم كما فعلت في بلدانها. بل دمرت كلياً كل القديم بايجابياته وسلبياته لتفرض نماذج هجينية لم ولا تستطيع العيش الا بالقوة والضغط والعنف والسيطرة على شروط العيش المحددة. فلا القديم بات فاعلاً ولا الجديد يمكنه العيش دون مغذياته الخارجية المصطنعة.

فتفقد الدولة السيادة الاقتصادية بالكامل لصالح الخارج. وتبدأ اقتصادياتها ولعبة الاسواق والارباح والمنافع وأنماط العمل والقطاعات الانتاجية بالتكيف مع ريعيات اقتصاديات التخلف ولصالح هيمنة الدولار واعطاء الامتيازات للشركات والمصالح الاجنبية على حساب تدمير البنى الوطنية. وعبر الخضوع لتدعيات سياسات الحصار والعقوبات وقرارات المؤسسات المالية والمصرفية. مما يضع هذه البلدان في مسار الازمات المتكررة. وخلق الفجوة التي لا تردم بين الشعب ودولته. مما يشجع الانقلابات والثورات الناعمة والتدخل المستمر في الشؤون الداخلية.

٣- إقتصاد السلعة الواحدة:

الانتقال من اقتصاد الاكتفاء الذاتي الى اقتصاد السلعة الواحدة التي ستكون لها نتائج كارثية في ضعف محاولات التنمية اللاحقة وبقاء الاقتصاد الريعي بيد المؤسسات المالية العالمية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي. فاوطاننا لم تكن متخلفة او ضعيفة لو تركت تسير وفق سياقاتها. ففي دراسة قد ننشرها مستقبلاً، كانت حصة الاقتصاد العباسي مثلاً في القرن الثاني عشر الميلادي ما يعادل ٤٠٪ من الاقتصاد العالمي يومها. وان علوم العالم الاسلامي بقيت تدرس في المدارس الغربية حتى بدايات القرن العشرين ككتاب الشفاء لابن سينا او نظريات الخوارزمي التي هي اليوم اساس الثورة العلمية والتكنولوجية العظيمة للخوارزميات والذكاء الاصطناعي، وقس على ذلك.

٤- معايير غريبة:

استبدال العملات واسلوب القياسات والتقويم ومعايير الاوزان والمسافات وعادات الناس واسمائهم وملابسهم وطعامهم بامور جديدة فرضت عليهم فرضاً او خجلاً ومماشاةً. ووصل الأمر الى تغيير اللغات وصولاً الى الغاء بعضها. فصار الناس يتكلمون الانكليزية او الفرنسية بدل العربية او الكردية او الفارسية او التركية مثلاً. والغيت كتابة التركية بالاحرف العربية لصالح كتابتها بالاحرف الفرنجية، وصار نموذج الحداثة والتقدم هو التشبه بالاجنبي سلوكاً ولغة ولباساً وفكراً.

٥- العلاقات العدائية مع الجوار:

تحولت العلاقات مع الجوار من علاقات طبيعية واساسية تشوبها احياناً بعض عوامل المرض والانقطاع والعراك الى علاقات تصادمية وعدائية مزمنة. فكلما تعززت العلاقات بالمراكز العالمية كلندن وباريس وبرلين وروما، كلما تراجعت العلاقات مع فضاءاتنا وجوارنا. فالاجنبي حر في التنقل والاقامة والعمل في أوضاننا، بينما يمنع ذلك على ابناء البيئة والفضاء والتاريخ والدين الواحد.

٦- الدولة كقفاز للتنازلات التاريخية:

استخدام الدولة للحصول على تنازلات تاريخية عن حقوق كانت الشعوب تدافع عنها وتحميها. فالدولة في مناطقنا تقدم تنازلات سياسية وآمنية واقتصادية وقيمية ليصبح ذلك حجة ومقدمة لتنازلات اكبر سواء على صعيد محلي او عالمي. وهو ما يعزز من مقومات نظام الهيمنة. كاتفاقات «كامب ديفيد» و«وادي عربة» مع مصر والاردن. او ما يجري حالياً من اتفاقات مع الدولة السورية حول الجولان وجبل الشيخ وحرية عمل الاسرائيليين في سوريا. ولعل ابرز مثال، ما حصل مع الوعد بالسلطة او الدولة الفلسطينية في «اتفاقات اوسلو» (١٩٩٣)، الموسومة بـ«إعلان مبادىء حول ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالي». إذ قادت الى تنازل السلطة عن الكفاح المسلح. والطلب من الامم المتحدة الغاء قرارها المرقم ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥ الذي اعتبر الصهيونية شكلاً من اشكال التمييز العنصري. وغيرها من مكاسب وحقوق حققها الشعب الفلسطيني بتضحياته وسنوات كفاحه. لتصل السلطة الى التطبيع مع الكيان الصهيوني المستمر في عدوانه واستيطانه.

مثل هذه الاعمال لم تشكل تراجعاً لموازين القوى الداخلية لمصلحة الاستعمار او الصهيونية فقط، بل عالمياً ايضاً. فالدول الأخرى لن تكون ملكية اكثر من الملك كما يقولون. مما ولد موجة عالمية للاعتراف بالكيان الصهيوني والانفتاح عليه، وهو ما استثمره الاستعمار والحركة الصهيونية ابشع استثمار.

٧- سد الفراغ:

كما شهدت «الدولة القومية/الوطنية» لهزات عنيفة نتيجة اما للانظمة الدكتاتورية او للعقوبات والحصار الاستعماري او لضعف امنها الداخلي، مما يفتح الباب لاعمال التدخل عبر أغطية «مشروعة» او غير مشروعة. فيتولد الفراغ الذي طالما ملأته المنظمات الارهابية التكفيرية او الاجنحة المتصارعة على السلطة، والتي تسمح للعدو الاسرائيلي او القوى الغربية للتدخل بحجة الدفاع عن الامن والدولة.

٨- حركة النقل والاقتباس:

اقتباس القوانين المدنية والتشريعية والدستورية والدولية وبناءات الدولة ومفاهيم الديمقراطية واشكالها، وغرسها قسراً في غير بيئتها، والتي تشكل في احيان كثيرة فخاخاً تقع فيها بلداننا. مما انتج سلوكيات متناقضة وهجينة، ونماذج تولد ميتة. وولد صراعات وتعطلات مستدامة تمنع تحقيق تقدم حقيقي واجماع وطني متكامل. نماذج تعطي كامل القوة للسلطات والارادات الخارجية والفوقية دون توفير شروط عمل الطرف الموازن، المتمثل بالاستمراريات التاريخية والارادات الشعبية والحقوق الاساسية للشعوب.

فتتفكك سيادتها السياسية لصالح ما يسمى بـ«المجتمع الدولي» الذي يفرض شروطاً في توصيف وقبول الديمقراطية المطبقة في هذه البلدان. او الاعتراف من عدمه بنتائج الانتخابات حسب النتائج ان كانت لمصلحة نخبه او بالضد منها. كما تفرض تعريفات خاصة به لحقوق الانسان ووسائل التعبير والقيم الاجتماعية كفرض رؤى «الجندر» او سن البلوغ والزواج او تطبيق احكام الاعدام، وغيرها من السياسات التي تعبر كلها عن وسائل الفرض والهيمنة وازدواجية المعايير.

فلا يتبقى للدولة سوى السيادة الشكلية والمحدودة التي يمثلها العلم والنشيد الوطني، ومقعد في الامم المتحدة. بينما تكون فاقدة للسيادة الفعلية في صنع القرارات الاستراتيجية التحررية الحقيقية.

٩- الدورة البسيطة والدورة الموسعة، او الدورة الداخلية والدورة الخارجية:

عزل كل دولة جديدة في كيان ودورة داخلية وخارجية لا تمتلك من المقومات سوى إعادة إنتاج الانسداد والجمود والتمزق ومفرخات الفساد والفقر ومنع التقدم الحقيقي. وهذا الأمر بحاجة لبحث مفصل مستقل سيفسر الكثير من الظواهر التي بدل ان تفتح النقاش باعتبار الخارج ونظام الهيمنة والكيان الصهيوني الاساس لهذه الحالة، إلى نقاش وفتنة داخلية تلقي اللوم على عوامل الداخل أساساً. فالداخل الذي تمت السيطرة على مقومات حياته، بشكل مباشر أو غير مباشر، لم يعد قادراً على الحسم. فهو منقطع او معزول عن فضاءاته وبيئته وقدراته واسواقه من تنظيم دورة اقتصادية او أمنية او حياتية متكاملة قادرة على احداث التراكمات الايجابية المطلوبة للانتقال من الدورات البسيطة التي من شأنها ادامة الحياة فقط، الى دورات موسعة قادرة على انتاج الفوائض وتحقيق الرقي والتقدم المطلوب. فالدورة الداخلية عاجزة ان تحقق ذلك ليس بسبب قطعها عن فضاءاتها التي تتغذى منها وتغذيها فقط، بل ايضاً لتدمير وتعطيل كل القطاعات الاخرى مباشرة لتراجع تنافسيتها امام المنتج (سلعة او خدمة) الارخص والاكثر جودة من الخارج. او بسبب عدم جدواها امام منتج واقتصاد السلعة الواحدة التي باتت سلعة استراتيجية، تشكل المصدر شبه الوحيد لمصادر البلاد المالية، رغم عالميتها وسيطرة الاسواق الخارجية على تقلباتها. وان كلام البعض ان العلة كامنة في شعوبنا وانفسنا هو كلام غير منصف ويخفي الحقيقة. لأننا إن تماشينا جدلاً، واردنا الخروج الى الدورة الموسعة او الخارجية، التي ضمنت لدول منتقاة بالتقدم والحصول على التسهيلات والامتيازات والأموال السهلة والسماحات والمكاسب المضمونة، فإن حاجزاً صارماً سيقف بالضد من دخولنا واندماجنا بتلك الدورة.

ولعل مثال تركيا التي تعطل طلب دخولها الى «الاتحاد الاوروبي»، رغم عضويتها في الناتو وكل التنازلات التي تقدمت بها. مقابل انضمام العشرات من دول اوروبا الشرقية الى «الاتحاد» مما يشير ان الامر على صعيد الدورة الخارجية او الموسعة ليس قراراً سياسياً او اقتصادياً بل قراراً وجودياً يتعلق بالهوية والتاريخ والايديولوجيات. فالشرق -كبلدان- يجب ان يبقى محكوماً -كماً ونوعاً- بشروط الغرب ومصالحه. وكل من يخرج عن ذلك، او يسعى للاستقلالية ولبناء دورات جديدة اصولية تعيد فعالية الفضاءات التاريخية أو الحقائق الجغرافية والديموغرافية، فان نتيجته مواجهة العقوبات والعزل والشيطنة والمقاطعة وتثوير العالم ضده.

١٠- الأمة تتجاوز الدولة:

ولعل الامر الأهم في تشخيص وضع «الدولة الوطنية/القومية» في بلداننا في العالم الاسلامي وموضعتها في علاقتها بشعوبها وبالخارج هو ان مفهوم الأمة هو مفهوم خاص تتميز به بلداننا. فالأمة ليست القومية او الوطنor Homeland Nation او غيرها من مفردات لا مقابل لها في اللغات الاخرى. إنها مفهوم قرآني متميز. فالأمة حاضرة وفاعلة وعابرة للحدود. وهي تبقى موجودة ومحفزة وحافظة للنوع والمصالح حتى عند تراجع الشعوب والدول والتشكيلات الاجتماعية والسياسية والأمنية والاقتصادية. كلما تفككت الاخيرة وضعفت كلما حضرت روح الأمة لتمنحها مقومات النهضة والحياة الجديدة. هذه حقيقة يجب الاعتراف بها خصوصاً من قِبل رجالات الدولة. فالدولة ليست البداية والنهاية. بل امامها وخلفها وفوقها وتحتها الأمة التي لها الكلمة الاخيرة في ذلك كله.

الموقف من الدولة في غرب آسيا؟

هل تعني «هشاشة الدولة»، وضعف بناها، وخضوعها في قضايا وطنية كبرى لإرادة المستعمر أن نعتبر الدولة عدواً لا يمثل سوى ارادة المحتل، او نظام الهيمنة العالمي. وان لا خلاص من هذه الهيمنة والاستعمار الا بالقضاء اولاً على الدولة ونظامها واقامة نظام بديل يحقق الاستقلال والإرادة الوطنية الحرة لشعوبنا. والجواب هنا ليس جواباً بحثياً او نظرياً. بل ان التجربة التاريخية قدمت لنا الجواب فيه، فلنقف عند ذلك.

١- هناك خصوصية في منطقتنا، قد لا تكون موجودة في بقية المستعمرات القديمة. ألا وهي زرع الكيان الصهيوني في فلسطين، وسعيه المستمر للتوسع والعدوان واخضاع دولنا. بما في ذلك الدول المتماهية مع نظام الهيمنة العالمي. وفرضه شروطاً تتصادم بالضرورة مع ما هو ابعد من قضايا الحكم والدولة والفترة الراهنة. قضايا لها علاقة بالدين والتاريخ وثوابت الشعوب والوطن وحيوية حضور ذلك كله في وجدان الأمة بكل ابعادها. فالأمة تشكيل ننفرد به كمسلمين. وهو ما سمح باحتواء ديانات ومذاهب وعقائد وثقافات وقوميات عديدة متنوعة. تأسس عبر العقيدة والتاريخ. فهو قائم وموجود وفاعل. وهو فوق الدولة. وهو عابر للحدود وللازمان. وهذه خصوصية ننفرد بها. لا مثيل لها في اية تشكيلة اخرى. بدون ذلك لن نفسر الكثير من التناقضات التي تظهر على السطح، والتي تدخل التذبذب بين المواقف الصحيحة والمواقف الخاطئة في سلوك الدولة.

٢- تبقى الدولة مركّباً داخلياً وطنياً. فهي كالابن المريض. يجب فهم اسباب مرضه ومحاولة تقديم العلاج الناجع له. فليس كل الدول على شاكلة واحدة او تاريخ واحد. فهناك دول تأسست من خلال جيش تحريرها كما هو حال الجزائر مثلاً. ورغم ان هذه الحقيقة لم تجعل من الجزائر مستقلة تماماً عن نظام الهيمنة لكن ذلك له تأثير مباشر على مواقفها في الكثير من القضايا الوطنية بالضد من المصالح الاستعمارية، خصوصاً موقفها من قضية فلسطين. بالمقابل هناك دول تأسست على يد قادة وعسكريين استعماريين كـ«غلوب باشا» و«لورانس» و«المسس بيل». ومضت تلك الدول بعيداً في التماهي مع نظام الهيمنة. وصاروا عقداً رئيسية في الاحلاف الاستعمارية في المنطقة كحلف بغداد مثلاً. او كـ«دول عازلة» Buffer States او دول «وسيطة» بين الكيان الصهيوني ودول او قوى المواجهة، كالاردن وبعض بلدان الخليج مثلاً. لكن البقية الباقية من مصالحها الوطنية طالما تواجه العدو سياسياً او حتى عسكرياً، وتثور وفق مصالح وطنية تقف بالضد من مصالح العدو الاسرائيلي او النظام الدولي. كموقف السعودية في قضية (اوبك +)، أو نمو التيار الوطني الكبير في الاردن ومصر بالضد من الكيان الصهيوني، وغيرها من امثلة يجب اخذها جميعاً بالحسبان عند اتخاذ موقف من الدولة.

٣- علّمت التجربة العديد من «الدول الوطنية/القومية» ان الظروف قد تسمح لدولة ضعيفة بنمو مقاومة قوية. وهذه حقيقة يجب استثمارها لا الخوف منها. فضعف الدولة اللبنانية مثلاً، الذي سمح باحتلال الكيان الصهيوني لاجزاء من لبنان، سمح أيضاً لنمو مقاومة شعبية ناضجة ومسؤولة. أمكنها تحرير لبنان من العدو الاسرائيلي. واستطاعت توفير الامن للبنان خلال عقود غير قصيرة من الزمن. كذلك هو الحال مع امثلة اخرى، في بلدان عدة، ومنها قطر مثلاً.

ودور فضائية الجزيرة لدعم المقاومة في غزة وفلسطين. او دور عُمان في مبادراتها الايجابية في حماية محور المقاومة. والأمثلة كثيرة ونجد لها تطبيقات في جميع الدول، اذا ما استعرضنا كامل تاريخ الصراع مع العدو. وعلى السلطات والانظمة في مثل هذه الحالات ان تعتبر هذه جائزة تمنح لها لتقوية موقفها مع نظام الهيمنة او الكيان الصهيوني لا ان تخضع لضغوطات ومطالب الاخرين للدخول في معارك مع ابناء جلدتها. خصوصا قوى المقاومة التي تدرك ان للانظمة ضروراتها وعليها اتباع النفس الطويل وسياسات الصبر الاستراتيجي، وليس الانفعال والذهاب للمواجهة التي تحمل في طياتها الكثير من عوامل الفتنة واضعاف الجميع.

٤- لا تصبح الثورة سياسة مشروعة، لازاحة منظومة وإحلال اخرى مكانها إلا مع توفر قيادة تاريخية شاملة، ووقفة شعبية حقيقية، وملامح بديل قوي يتجاوز مركبات الدولة القومية، ويستطيع الصمود بوجه الضغوطات الاستعمارية الخارجية. والتحديات الصعبة الداخلية. ويستطيع ان يبني نظاما جديدا يمتلك كل مقومات تجربة جديدة حررت نفسها من الكثير من قيود الاستعمار والهيمنة، كما هو حال «الجمهورية الاسلامية». وباحتمالية اقل، تركيا، التي بنت قوتها وقدراتها الجديدة في سياقات انتمائها للناتو واعترافها بالكيان الصهيوني وسعيها للانضمام للاتحاد الاوروبي. الذي رفضها وفضل البلدان الاوروبية الصغيرة عليها، مستنهضاً بذلك شرقيتها، ومحفزاً اسلاميتها وتراثها. مما يمنحها فرصة كبيرة لبناء وحدة اقليمية تتصدى للمشاريع الصهيونية والاستعمارية، لا للتنافس والتنازع على حساب مصالح وحقوق الأمة. عسى ان تصلح بذلك الخطأ الكبير الذي بدل ان يصحح مسار سوريا ويقويها (بالتعاون مع ايران وروسيا) قاد بها لوضع سوريا تحت رحمة «اسرائيل» والولايات المتحدة.

الخلاصة أو البديل :

• سقط مشروع الحضارة الغربية. سقط مشروع «حرية، مساواة، اخاء»، او مشروع نقاط ويلسون (١٤ نقطة إقترحها عام ١٩١٨ لإنهاء الحرب العالمية الأولى) التي تتضمن حقوق الامم واستقلالها كبيرها وصغيرها.

• سقطت الأمم المتحدة بقيام ممثل الكيان الصهيوني بتمزيق ميثاقها من على منصة الجمعية العمومية وامام انظار العالم.

• سقط مشروع الديمقراطية الغربية والمجتمع الدولي، سقطت الرأسمالية والليبرالية بكل اشكالها، سقط مشروع الدولة الوطنية/القومية، وسقطت الشرعية والاخلاقية الدولية التي أريد لها ان تنتقل للاخرين عبر القناعة، ولتتحول الى سلوك طبيعي فطري، يقبله الناس والتاريخ والقيم العليا، وليس غصبا وقسرا، لا يعمل الا بالقتل والاستيلاء والتوحش والابادة الجماعية.

• سقطت هذه كلها كنماذج تَقَاتَلنا من اجلها عقوداً وقرونا. وعادت كما كانت قوة التوحش والتفرد والاستيلاء والقتل والخطف. عدنا الى ما قبل قرون عديدة. الاعداء بافعالهم يستبيحون كل شيء، وهم بذلك يكشفون عن اقنعتهم. وهم بذلك ينظمون صفوفنا. خصوصا وان الظروف قد تغيرت. والشعوب والامم باتت تمتلك قدرات وقوى وبدائل تستطيع بها استعادة مكانتها التاريخية وانهاء ـ عاجلا ام اجلا ـ هذه الحقبة من التاريخ الاستعماري العدواني.

ومن يعتقد ان القوة الظاهرة التي تبديها الولايات المتحدة وانصار الايديولوجية المسيحية الصهيونية عموماً هي مظاهر تفوق هو مخطىء تماما. فالابادة الجماعية في غزة وفلسطين، والعدوان على لبنان وايران وسوريا والعراق وبقية بلدان المنطقة، واختطاف الرئيس مادورو في فنزويلا. وكل الاعمال العدوانية الاخرى هي مظاهر يأس وانفعال وضعف وقلة حيلة. فهذه لو جاءت في بداية مشروعهم لقلنا انها بدايات تأسيس. لكن هناك اليوم عالم جديد يولد خارجهم. عالم تعلم الكثير من الدروس. وبات يرفض اسلوب الامبراطوريات القديمة في الابادة والاستيلاء واستباحة دماء الناس وسرقة قوتهم وارزاقهم وثرواتهم. عندما كان الغرب قويا كان يكتفي بتلويح العصا لتنتظم الصفوف. اما اليوم فهو يخوض حربا تلو اخرى ويفشل فشلاً بعد اخر في القتال رغم نجاحاته في القتل. ورغم صوته العالي وسياساته القمعية، وقواه الموروثة التي تسعى لتغطية اعمالها. فلا يصدقها سوى الجهلة واصحاب المصالح والذين غُسلت ادمغتهم بانهم القدوة والنموذج ومصادر القوة في عالم اليوم والغد. وان دولاً تضمها مجموعة «بريكس» او «شنغهاي» باتت تشكل قيادات عالمية واقليمية لدول وشعوب ومساحات يفوق عددها وحجمها عدد واحجام الدول المسيطرة على نظام الهيمنة العالمي. وتتقدم باستمرار في اقتصادياتها وعلومها وابتكاراتها وقدراتها على قدرات وامكانيات دول نظام الهيمنة مجتمعة.

• **ما هو البديل**: نحن لدينا رؤى إيمانية للبديل. لكن الرؤى الايمانية هي رؤى خاصة والمطلوب هنا رؤى عامة يتفق عليها المؤمن وغير المؤمن. فلا بديل للدولة الوطنية/القومية بنسختها الحالية سوى الدولة نفسها. لكن كمنتج وطني، والتي لدينا منها مئات التطبيقات التاريخية والمعاصرة، الناجحة او الفاشلة جزئياً او كلياً. فالحل يكمن بالدولة المنسجمة مع فضائها مع بقية دول المنطقة وتاريخها وقدراتها وامكانياتها وثوابتها. الحل هو بالدولة مجردة من معظم ما تم غرسه فيها من مدخلات خارجية غربية ضارة. والذي جعلها دولة غير متوازنة تفشل في اداء واجباتها الاساسية، تخدم الخارج وشرائح محلية مرتبطة بها. دولة لا تستهلك البشر والطبيعة والفضاء لتقود الجميع ونفسها نحو الانتحار الذاتي والهلاك الجماعي.

فالحل يجب ان يتلازم مع انهاء الطبيعة الهيمنة والمحتلة والمعتدية للدول المستعمرة والصهيونية. لتستعيد دولنا ارتباطها بفضاءاتها وتاريخها ومقوماتها الذاتية. لتستنشق من روح الأمة عدليتها واحقيتها والكثير من مصادر الكرامة والقوة والسمو القيمي والاخلاقي. وهذه عملية تاريخية معقدة وطويلة تقوم على مبدأ تفكيك وإعادة تركيب. لتعود الهيكلية الاقليمية والعالمية متكونة من مناطق ودول متجاورة وليست مهيكلة في عالمية واحدة، لها شرطي واحد يديرها لمصلحته. نعم ستكون هناك تدافعات وصراعات واختلافات كما كان يحصل عبر التاريخ كله. لكنه تاريخ جديد لا يسير نحو التفرد والتسلط والظلم والانتحار الذاتي، كما شهدنا خلال القرون الاخيرة.

• **كلمة اخيرة**: إننا لا نعيش المعارك الاخيرة. إننا ان صح التعبير نعيش بداية بداية النهاية لتاريخ استحوذت عليه قلة قليلة. سنربح الكثير من المعارك الاستراتيجية، وسنخسر معارك استراتيجية كثيرة ومهمة. ستبرز تحالفات وانظمة جديدة. وستنهار انظمة وتحالفات قائمة ضدنا او لصالحنا. ستتطور وسائل وأسلحة مقاومة جديدة. وسيطور العدو اسلحة وأدوات جديدة للقهر والقتل. فنحن نتحدث عن مسارات تاريخية لها خطوطها البيانية وموازينها الاكيدة والثابتة لنقول ان النصر آتٍ لا محالة، وليس عن احداث جارية لها موازين قوى متقلبة ومتغيرة يومية، لنقول يوم لكم ويوم عليكم. ففي مختبر الحياة والتاريخ هناك دائماً المجهول لـ «لا نهائية» المقدمات والعناصر. خلاف مختبر الجامعات بـ «محدودية» الفرضيات والمقدمات وعناصر الاختبار. فمن كان يتوقع في نهايات ٢٠١٩ ان تفعل جائحة كورونا ما فعلته في عام ٢٠٢٠ وبعده. من كان يتوقع فواجعها التي اصابت اكثر من (٧٠٠) مليون مصاب، توفي منهم أكثر من (٧) ملايين حالة في العالم ليومنا هذا. أي (٧ـ٨) مرات اكثر من المصابين في الحربين العالميتين الاولى والثانية مجتمعتين، وحوالي نصف، ثم عُشر الموتى او القتلى في الحربين على التوالي. ثم بحساب من نضع هذه الضحايا. هل هي الصدفة وسوء الطالع؟ هل هي السياسة؟ هل هي المنظومة العالمية؟ هل هي التطورات البشرية؟ وهل العالم الذي نعيش به آمن في ظل هيمنة الحضارة الحالية؟ ولماذا يموت من الكورونا حوالي (١,٢ مليون مواطن تقريباً) في الولايات المتحدة وعدد سكانها حوالي (٣٣٤ مليون نسمة) وهي الاقتصاد الاول في العالم، ولماذا يموت حوالي (٥٢٠٠ مواطن فقط) في الصين وعدد سكانها (١,٤٤٨ مليار نسمة تقريباً)، وهي كانت من افقر الدول الى امد قريب جداً. وهل كنا نتوقع التغيرات التي حصلت في انماط حياتنا وعملنا. والنقاش طويل، ويتطلب تأملات واستنتاجات كثيرة.

لهذا نقول بان مختبر الحياة في السياسة يتطلب نظرة بعيدة وحساب التحولات الاستراتيجية التراكمية العميقة، والمجاهيل التي تحولت لحقائق، لا الغرق في الاستنتاجات السريعة لمختبرات الجامعات ومراكز البحث السياسية ومنصاتها، التي تضع فرضياتها ومقدماتها وعناصر بحثها بحدود تقررها هي ذاتياً، ولا تتقرر بالضرورة انطلاقاً من كامل الحقائق الموضوعية.

جيفري ساكس

المصادر:

مستقبل النمو العالمي: البروفيسور جيفري ساكس يتحدث عن الجغرافيا السياسية والتفتت

(بتصرف)

مستقبل النمو العالمي، في ظل حقائق الجغرافيا السياسية والتفتت

باحث إقتصادي أميركي مختص في السياسات العامة، واستاذ في جامعة كولومبيا، ومدير معهد الأرض للتنمية المستدامة. من أبرز مؤلفاته (*):

*تصدير:

يتناول الخبير الاقتصادي العالمي جيفرس ساكس، مسألة إعادة توازن القوى الاقتصادية العالمية، من شمال المحيط الأطلسي وصولاً الى آسيا، وتداعيات ذلك على افريقيا.وبالاستناد الى معطيات التاريخ، والاقتصاد، والستراتيجيات العالمية، يقدّم ساكس سرداً واضحاً وبالأدلّة،على ما سبق أن قدّمه تقرير مجلس العلاقات الخارجية الأميركي لعام ٢٠١٥، حيث استنتج أن منع صعود الصين هو أمربات ضرورياً للحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة.

يربط ساكس هذا الأمر بالرؤى التي تنبّأ بها آدم سميث عام ١٧٧٦، بإعادة التشكيل العالمي الراهن، وهو ما يكافح الغرب اليوم من أجل القبول به.

كما أن نموّ آسيا صار يمثل سلسلةً متصلةً ومنظّمة من الأحداث: تحديث اليابان (١٨٦٨) ← النمور الآسيوية ← إصلاحات الصين (١٩٧٨) ← تحرير الهند (١٩٩١) ← والتقدّم السريع الذي نشهده اليوم في آسيا الوسطى والخليج.

لقد سرّعت الصين هذا المسار، مستفيدةً من تجارب اليابان وسنغافورة لبناء أحد أكثر الاقتصادات تقدماً تكنولوجياً في العالم خلال أربعة عقود فقط.وهنا يؤكد ساكس على نقطة بالغة الاهمية لأفريقيا، مفادها أن العولمة لا تنحسر، بل تعيد تنظيم نفسها، ومع التوقع بأن تستحوذ افريقيا على ٢٥٪ من سكّان العالم بحلول عام ٢٠٥٠، ثم ترتفع هذه النسبة الى ٤٠٪ في عام ٢١٠٠،، عندها سيتاح للقارّة فرصة تاريخية لتشكيل حقبة النمو العالمي القادمة. إلّا أن تحقيق نمو سنوي مستدام بنسبة ٨ـ١٠٪ يتطلب استثماراً ضخماً في التعليم والبنية التحتية الرقمية والقدرات المؤسسية.

*نوبة غضب للولايات المتحدة:

نحن الآن نمرّ بلحظة مفصلية رئيسية يمر بها العالم. وأرى أن الجميع يعرفون الأمر، ويشعرون به في جميع أنحاء العالم. بل يمكننا أن نشكر الرئيس الأميركي دونالد ترامب، لأنّه أوضح لنا مدى غرابة العالم، لقد قدّم لنا صورة عن أغرب رئيس ممكن للولايات المتحدة.

إن عالمنا اليوم هو عالم مختلف تماماً عن عالم الماضي، وهو عالم تتلاشى فيه الولايات المتحدة، من حيث الجانب العقلاني، ومن حيث هيمنتها التي استمرّت ٧٥ عاماً.

في العالم الجديد، نرى أن الصين أصبحت تمثل اقتصاداً أكبر من الولايات المتحدة، واكثر ديناميكية وتطوّراً من الناحية التكنولوجية، رغم أن الناتج المحلّي الإجمالي للفرد الصيني وفق البيانات التقليدية، لا يزال يساوي ثلث ما ينتجه الفرد في الولايات المتحدة فقط (يبلغ GDI للفرد في الصين ١٣,٦ الف دولار، بينما يبلغ في الولايات المتحدة ٨٩ الف دولار، للفرد سنوياً حسب بيانات ٢٠٢٥).

ويضاف الى هذه الحقائق، أن الصين صارت أكثر تقدماً من الولايات المتحدة في مجالات البُنية التحتية، والبحث العلمي، وتقنيّات القرن الـ ٢١. وهذه هي ملامح النظام الإقتصادي الجديد الذي نواجهه،

وما يتحتم فهمه لاستيعاب المعاني الغريبة في السياسة الأميركية، ومن اجل تسهيل عملية فهم ما يحدث من حرب اقتصادية بين الولايات المتحدة والصين، وكيف ان بقية العالم صار محاصراً بين الإقتصادين العملاقين.

يتصوّر الجميع أن ما يجري هو حالة (حرب تجارية) بين الجانبين، وبالتالي تبرز الحاجة الى تهدئة التوترات، لكن في الحقيقة إن الأمر ليس كذلك تماماً.

إن ما يحدث هو أن الولايات المتحدة تعاني من نوبة غضب بشكل أساسي، وليس حرباً بالضرورة، ونجد الولايات المتحدة الآن وهي تثور غضباً لأن الصين حققت نجاحاً باهراً. هذا يختلف تماماً عن قتال طرفين لبعضهما البعض. ويمكن وصف الأمر في هذا التصرّف وتشبيهه بسلوك طفل في الرابعة من عمره، وقد جرى انتخاب رئيس يناسب هذا الدور تماماً.

في هذا المجال، أقتبس من مقال كتب قبل ١٠ سنوات، يلقي الضوء على العقلية الأميركية، وقد كُتب لمجلس العلاقات الخارجية، وهو من المؤسسات الرسمية المعنية بالعلاقات الأميركية الصينية.

لقد اشترك في كتابة المقال كل من؛ روبرت بلاكويل/ Robert D. Blackwill، وآشلي تيليس/ Ashley J. Tellis، وعنوان المقال هو: «مراجعة الاستراتيجية الأمريكية الكبرى تجاه الصين»، نُشر في مارس/

آذار ٢٠١٥. وبعض المقتطفات منه ستساعد على فهم الجغرافيا السياسية بشكل اشمل. إن بلاكويل الذي كان زميلي في جامعة هارفارد، وبعد تخرجه من هارفارد أصبح أحد أبرز الدبلوماسيين الأمريكيين. كما خدم سفيراً لدى الهند ومسؤولاً رفيع المستوى في الولايات المتحدة. لذا فإن ما يقوله يُعتبر مرجعاً موثوقاً به في هذا الشأن. إنها ليست مجرّد تكهنات أكاديمية. إنه إعلان يتعلق بالسياسة الأمريكية.

ويقول: «منذ تأسيسها، انتهجت الولايات المتحدة استراتيجية كبرى تركّز على اكتساب النفوذ والحفاظ على حالة الهيمنة على مختلف منافسيها. أولاً في قارة أمريكا الشمالية، ثم في نصف الكرة الغربي، وأخيراً على الصعيد العالمي، وذلك لأن الجهود الأمريكية لدمج الصين في النظام الدولي الليبرالي قد ولّدت تهديدات جديدة للهيمنة الأمريكية في آسيا، وقد تؤدي في نهاية المطاف إلى تحدٍّ كبير للنفوذ الأمريكي عالمياً».

إن واشنطن بحاجة إلى استراتيجية كبرى جديدة تجاه الصين تتمحور حول موازنة صعود القوّة الصينية بدلاً من الاستمرار في دعم صعودها(يقصد عبر إساءة استخدام السياسة). بعبارة أخرى، لقد أصبحت الصين قوة عظمى، ونحن في الصدارة، ومن الأفضل أن نوقف ذلك. ببساطة.

إن النمو الصاروخي للاقتصاد الصيني، حتى مع بقاء دخل الفرد في الصين أقل من نظيره في الولايات المتحدة، قد وفّر بالفعل لبكين في المستقبل القريب الموارد اللازمة لتحدي أمن جيرانها الآسيويين ونفوذ واشنطن في آسيا، مع عواقب وخيمة على جميع الدول.

وفي معظم السيناريوهات المحتملة، فإن الصين ستظل المنافس الأهم للولايات المتحدة لعقود قادمة. لقد أدى صعود الصين حتى الآن إلى ظهور تحديات جيوسياسية وعسكرية واقتصادية وأيديولوجية لقوّة الولايات المتحدة وحلفائها، بل وحتى للنظام الدولي الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة. كما أن استمرار هذا الصعود، حتى وإن كان نجاحه متفاوتًا في المستقبل، من شأنه أن يقوّض المصالح الوطنية الأمريكية بشكل أكبر.

يمكننا أن نسمي هذا الأمر بـ (الواقعية القاتمة/Offensive Realism)، والتي تنضوي على اعتبار أن نجاح الصين هو أمر سيء، وهذا هو الموقف الأمريكي. ليس لأن الصين تفعل أي شيء ضار أو من أفعال الشر، بل لأنها ببساطة ناجحة. وإذا كنت في المركز الأول، وكان من خلفك يتقدّم عليك أو يتجاوزك، ولم يكن تفكيرك منصبًا على أدائك أنت، بل على أدائك مقارنة بشخص آخر، فإن ذلك يُنظر إليه على أنه أمر خطير. هذه هي العقلية الأمريكية. وما يُعجبني في هذه المقالة التي أجدها بغيضة تمامًا إلّا أنها دقيقة جدًا في رأيي - هو تشخيصها لهدف أمريكا في فرض الهيمنة، وهذا واضح تمامًا.

لذلك، إذا كانت دولة أخرى صاعدة أو قوية أو تشكل منافسة مباشرة، فهذا أمر سيء في حد ذاته. وفي الحقيقة أن هذا يتعارض تمامًا مع كل ما كنت أراه واتبناه سابقاً، لقد تدربتُ على هذا المبدأ وفكرتُ فيه طوال مسيرتي المهنية، وهو أن الرفاه الاقتصادي ليس صراعًا صفريًا. فإذا كان جزء من العالم أفضل حالًا، فهذا لا يُقلل من شأن بقية العالم.

*كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث:

في العام المقبل، سنحتفل بالذكرى الـ ٢٥٠ لصدور كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث، وهو الوثيقة الأكثر تأثيرًا في تشكيل الأفكار الاقتصادية للعالم الحديث. صحيح أن فيه بعض العيوب التي يُمكننا ذكرها في النقاش، لكنه كتاب عبقري وإنساني بامتياز. فكرته الأساسية هي أن العالم يُساعد بعضه بعضًا، وأن أجزاء العالم المختلفة تتبادل التجارة فيما بينها، وهذا يُحقق منفعة متبادلة، أي على العكس من العقلية الأمريكية. وبالتالي، فإن وجود السوق العالمية الأكبر يعدّ أمراً مفيداً للجميع. وقد طرح سميث رؤيتين إنسانيتين عميقتين؛

الأولى، كما قال للبريطانيين، لأن الكتاب قد كُتب في اسكتلندا عام ١٧٧٦، هي: «لا تُحاربوا الأمريكيين. تاجروا معهم، ودعوهم ينالون استقلالهم. لسنا بحاجة إلى مستعمرات. نحن بحاجة إلى التجارة الحرّة لأنها هي التي تُحسّن أوضاعنا.»

كانت هذه فكرة إنسانية للغاية، لكن الملك جورج الثالث لم يُعرها اهتمامًا. واندلعت حرب ثورية استمرت لسنوات طويلة. ومن المفيد أن نلاحظ أن جورج واشنطن لم ينتصر في هذه الحرب، بل انتصر الفرنسيون الذين رأوا في تلك الحرب فرصة لتقويض منافستهم بريطانيا.

مرة أخرى، إننا هنا إزاء فكرة أوروبية بحتة، وهي إمكانية إلحاق الضرر ببريطانيا من خلال مساعدة الولايات المتحدة. لقد أحسنت فرنسا صُنعًا، فأنفقت أموالًا طائلة، وغرقت في الديون، ما أدى إلى ثورة في العقد

التالي عندما حاول وزير ماليتها رفع الضرائب لسداد الديون المتراكمة نتيجة حربها ضد البريطانيين في أمريكا الشمالية.

المهم أن سميث قال: «دعهم يرحلون». كل ما نحتاجه هو أن نتاجر معهم. ولسنا بحاجة إلى السيطرة عليهم. والأمر الآخر الذي قاله آدم سميث بشكل رائع للغاية هو: «إن أهم حدثين في تاريخ البشرية هما رحلات كولومبوس أو اكتشاف الطرق البحرية إلى الأمريكيتين وآسيا من أوروبا».

لذا فإن رحلات كريستوفر كولومبوس في عام ١٤٩٢، وفاسكو دي غاما في عام ١٤٩٨. كما يقول سميث عنها؛ «إن هذه الأحداث وحدت العالم بأسره»، وفي الواقع وحّدت العالم لأوّل مرّة منذ ١٠٠٠٠ عام، لأنه قبل ١٠٠٠٠ عام كان العالم موحدًا فوق جسر برّي بين آسيا والأمريكيتين، ثم غمرته المياه عندما انتهى العصر الجليدي، وارتفع مستوى سطح البحر.

وهكذا أصبح بيرينغ مضيقاً حاملاً بدلاً من جسر برّي. وهكذا انقسم العالم بين العالم القديم والعالم الجديد. ثم جاءت هذه الرحلات، ويقول سميث؛ «إن هذا كان ينبغي أن يفيد الجميع لأن كل جزء من العالم يمكن أن يساعد في تلبية احتياجات أجزاء أخرى من العالم. لذا ينبغي أن تكون هناك منفعة متبادلة».

ثم كتب يقول في عام ١٧٧٦: «لكن حدث أن التفوق العسكري الأوروبي كان هائلاً لدرجة أن هذه التواصل بين مختلف أنحاء العالم ألحق دماراً هائلاً بجزر الهند الشرقية والغربية، وبسكانها الأصليين». ثم يقول: «لكن سيأتي يوم تعود فيه موازين القوى في العالم إلى طبيعتها».

إن هذه العودة ستتحقق من خلال التجارة، لأنها ستنشر الأفكار، وتسمح للمناطق التي تخضع الآن لهيمنة الحكم الأوروبي بالصعود إلى السلطة وإعادة إرساء العدالة الدولية القائمة على المساواة في القوة.

إذن فقد جرى تدوين ذلك قبل ٢٤٩ عاماً. نحن الآن في ذلك العالم. وكانت في الواقع التجارة فيه هي تجارة دولية حرفياً، لأن هذه كانت آلية صعود الصين التي تؤدي إلى إعادة توازن القوى. وإذا جمعنا هذه الأجزاء معاً، فإن ما كتبه بلاكويل وتيلوس في عام ٢٠١٥، هو في الأساس نهاية لقصّة آدم سميث. إنها ثورة، وردّة فعل من آخر قراءات الإمبريالية الغربية ضد صعود بقية العالم. وهذه هي الفترة التي نمر بها الآن.

*ترامب ليس نهاية القصّة

نحن في مرحلة ردّ الفعل. وترامب هو الرئيس الرجعي بامتياز ، وبالمعنى الحرفي للكلمة، وماذا يعني شعار « نجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى»؟. إنه يعني العودة الى عالم عام ١٩٥٠ عندما كانت أمريكا أقوى جزء في العالم وأكثرها «بياضاً». إذن، إنه ردّ فعل عنصري، وردّ فعل عالمي للقوّة، ومحكوم عليه بالفشل. ولا يمكن أن ينجح ذلك لأن آدم سميث كان محقًا بشكل أساسي في رؤيته عام ١٧٧٦ بأن العالم سيستعيد توازنه بمرور الوقت، وقد أستعاد العالم توازنه بالفعل، وكذلك في الولايات المتحدة.

ولفهم منطلقات دونالد ترامب، يجب أن نفهم أن التركيبة السكّانية الأمريكية قد تغيّرت بشكل حاسم. كنّا حوالي ٨٨٪ من البيض وأوروبيين بالكامل تقريبًا في عام ١٩٥٠. أمّا الآن، فإن الولايات المتحدة، وفقًا لتعريف التعداد السكاني الأمريكي، تعني أن «البيض/ White Caucasian»، هم غير المنحدرين من أصول هسبانية. إذن، هذا المكان بأكمله يعرّف عن العِرق بأكثر من أي مكان آخر على هذا الكوكب. والأمر مُتّبع في التصنيفات، وكل تلك الأمور الغريبة المشابهة.

لكن في الولايات المتحدة، تعني كلمة «أبيض» أنك لست من أصل هسباني. أو لست من الأشخاص الملوّنين من مختلف الأنواع، من الأمريكيين الأفارقة، والأمريكيين الآسيويين، وما إلى ذلك. وهذه الفئة البيضاء غير اللاتينية، التي كانت تشكل حوالي ٨٨٪ من السكان، أصبحت الآن ٥٥٪ من السكان، وستكون أقل من ٥٠٪ بحلول أربعينيات القرن الحالي

إذن، ترامب هو آخر رد فعل رجعي على ذلك. لقد تم خلقه حرفياً من خلال رئاسة أوباما لأنه جاء بصيغة ردّ فعل على أوباما، ورومني هو رد فعل على ترامب، وبالمناسبة، رومني وأوباما هما مستقبل البلاد من الناحية الديموغرافية البحتة، لذا فإن ترامب ليس نهاية القصة، ولكنه الجزء الأكثر غرابة في القصة التي مررنا بها على الإطلاق، وهذا أمر مؤكد تماماً.

*الديناميكية الآسيوية: المسار التاريخي من التحديث الياباني إلى المنافسة التكنولوجية الصينية

إذن، الوضع الجيوسياسي الذي نحن فيه يخبرنا أن العالم يعيد التوازن، ولكن ما حدث بشكل خاص هو «صعود آسيا»، وهذه القارة تتكون من أجزاء مختلفة كثيرة، ومن المثير للغاية الاهتمام بالأجزاء، لأن آسيا بالطبع تمثل حوالي ٦٠٪ من سكان العالم. لذا فهي جزء كبير ايضاً من تاريخ البشرية. لكن عندما سيطرت الإمبريالية الأوروبية على أفريقيا وآسيا في القرن التاسع عشر، تمكنت دولة واحدة في آسيا من الإفلات من الحكم الاستعماري بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهكذا كانت اليابان. إنها قصة رائعة، لكن اليابان ردت على وصول الإمبريالية الأمريكية، وتحديداً مع ظهور البحرية الأمريكية في خليج طوكيو في خمسينيات القرن التاسع عشر، بثورة رأسمالية حاسمة، أسميها ثورة رأسمالية، في عام ١٨٦٨ تُعرف باسم «ثورة ميجي/ Meiji Restoration».

رأى اليابانيون وقتها أنه يتحتم عليهم توحيد صفوفهم، وأنهم سيقعون تحت سيطرة أولئك البرابرة الغربيين. وبالفعل، وحّدوا صفوفهم بطريقة لافتة للنظر. ومن بين الأمور التي فعلوها، أنهم لم يكن لديهم إنترنت آنذاك، وكانت الاتصالات ضعيفة، لذلك أنشأوا لجنة في عام ١٨٦٨ للقيام بجولة حول العالم لمعرفة «أفضل الممارسات» لدى أقوى الدول، سُميت لجنة إواكورا/ Iwakura Mission.

سافرت هذه اللجنة حول العالم، وعادت بـ ١٨ مجلداً من الملاحظات حول أوروبا والولايات المتحدة وما يجب فعله. وقد أجروا إصلاحات جذرية في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، مما أدى إلى انطلاق أول عملية تصنيع في آسيا، وأصبحوا بارعين في ذلك لدرجة أنّهم بحلول عام ١٨٩٥ أصبحوا قوة إمبريالية فعلية. إذن، كان الأمر مُتعلقاً بالعقلية.

وفي عام ١٨٩٤، غزت اليابان الصين، وقال دبلوماسي صيني لنظيره الياباني: «لماذا تغزوننا؟، نحن نتعرض للهجوم من قبل البرابرة من الغرب وأنتم تهاجموننا». فأجاب الدبلوماسي الياباني: «آه، آسف. لقد انضممنا إلى ناديهم». هذا اقتباس حرفي من كتاب رائع لـ إزرا فوغل/ Ezra F. Vogel، حول الصين واليابان في مواجهة التاريخ، وكيف أصبح اليابانيون متطلعين إلى أن يكونوا بصفة «إمبرياليين غربيين»، وغزوا الصين مراراً وتكراراً حتى عام ١٩٤٥، واستعمروا تايوان وكوريا وما إلى ذلك.

على أي حال، بالعودة الى الاحداث الجارية، فقد بدأت هذه الديناميكية الآسيوية مع اليابان. ثم أصبحت اليابان القوّة الإمبراطورية الأبرز في شرق آسيا. لقد أشعلت فتيل الحرب العالمية الثانية في آسيا بالطبع، وكانت حرباً وحشية بشكل مذهل، حيث لقي ما بين ١٠ إلى ٢٠ مليون صيني حتفهم خلال الحرب العالمية الثانية. وهي قصّة لا يعرفها إلّا القليل من الناس حول العالم.

وبالتأكيد لم أكن أعرف التفاصيل حتى قرأت كتاباً لأستاذة من جامعة هارفارد تدعى رانا ميتير/ Rana Mitter، بعنوان «الحليف المنسي: الصين في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٧–١٩٤٥)»، حول ما حدث للصين، ومدى الدمار الشامل الذي خلفته تلك الحرب.

لكن على أي حال، بعد الحرب العالمية الثانية، تعافت اليابان على الفور تقريباً في غضون ١٥ عاماً، لأن الولايات المتحدة أعادت بناء اليابان بجهود يابانية كبيرة، بالطبع، ولكن أعادت بناء اليابان لتكون قوة ضاربة ضد الشيوعية في شرق آسيا. لذا، قدّمت الولايات المتحدة يد العون الإضافية. وهكذا بدأت عملية التعافي الآسيوي بعد الحرب. ثم جاءت جميع الدول التي اتبعت مثال اليابان في كيفية النمو السريع ،لأن اليابان ابتكرت استراتيجية النمو السريع أولاً في سبعينيات القرن التاسع عشر، ثم فعلت ذلك مرّة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية. وهو مزيج من الدولة والسوق. إنه نمو السوق الموجّه من الدولة. وإذا بدا الأمر مألوفاً في الصين، فذلك لأن الصين تعلّمته من اليابان. في الحقيقة، تعلّمت الصين ذلك من سنغافورة، التي تعلّمته بدورها من اليابان.

صعود الاقتصاد الآسيوي

إذن، جاء النمو الياباني أولاً، ثم جاء ما يسمى بـ «النمور الآسيوية»، تايوان وكوريا وسنغافورة وهونغ كونغ. ثم، وصل دونغ شياو بينغ إلى السلطة في الصين عام ١٩٧٨. وأجرى محادثات طويلة مع لي كوان يو عندما زار سنغافورة، وطبّق نموذج سنغافورة، الذي كان في الأصل نموذجًا يابانيًا، وطبقه بشكل جيد لدرجة أن ١,٤ مليار نسمة أصبحوا منافسًا قويًا وديناميكيًا من الناحية التكنولوجية للولايات المتحدة في غضون ٤٠ عامًا، والخطوة التالية في هذا هي الهند، التي تتأخر عن الصين بحوالي ٢٠ عامًا من الناحية الزمنية في التطوّر.

نظرت الهند إلى الصين ورأت أنه يتحتّم عليها خوض الإصلاح. وقد شرعت بالفعل في التسعينيات، حيث انفتحت على العالم وأنهت ما كانت تسميه بـ«نظام التراخيص/ License Raj»، وهو نظام بيروقراطي مختلط تمامًا، وانفتحت على ريادة الأعمال الكبيرة، وبدأت في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين نموًا اقتصاديًا سريعًا أيضًا.

بعد لك تأتي منطقتان في آسيا؛ أوّلها هي آسيا الوسطى، التي بلغت ذروة نفوذها الاقتصادي في عام ١٤٠٠، عندما كان «طريق الحرير»، هو الممر الرئيسي بين أوروبا وآسيا. لكن بعد فاسكو دي غاما، أصبحت المدن الكبرى في آسيا الوسطى، مثل سمرقند، وبخارى وغيرها، بمثابة متاحف إلى حد ما، لأن دورها في التجارة بين الشرق والغرب انتهى برأس الرجاء الصالح أولاً، ثم بقناة السويس في أواخر القرن التاسع عشر.

لكن الآن تقول آسيا الوسطى إننا عدنا مرّة أخرى، لأن النقل البرّي فعال للغاية وأسرع بكثير من الطرق البحرية، والصين جيدة حقًا في السكك الحديدية السريعة، لذا فإن آسيا الوسطى تشهد أيضًا طفرة أولية، باعتبارها حلقة الوصل بين الشرق والغرب.

وعلى هذا الحال، لا يزال هذا الأمر قيد التشكيل والترسيخ، لكن ما يسمى بالمناطق الخمس في آسيا الوسطى، وهي؛ تركمانستان، وطاجيكستان، وأوزبكستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، تقع في المنتصف بين أوروبا وآسيا، وتستعيد دورها التاريخي القديم كجسر برّي بين الشرق والغرب، وهذا يساعد النمو بشكل كبير للغاية.

ثم تأتي منطقة آسيا الرئيسية الأخيرة التي يجب ذكرها بالطبع وهي (الشرق الأوسط)، وخاصة منطقة الخليج الغنية بالنفط. وهذه منطقة غنية جداً تواجه تحدياً معقداً يتمثل في التحوّل العالمي للطاقة، في حين أن سبل العيش كانت تعتمد على الهيدروكربونات. لكنّها منطقة غنية منطقة الخليج بأكملها. إذن، آسيا في حالة ديناميكية للغاية. سيبقى الوضع على حاله بغض النظر عما تفعله الولايات المتحدة.

*اعادة تنظيم العولمة

وبهذا المعنى، ليس من الصحيح القول بأن «العولمة»، قد انتهت أو أن العالم أصبح مجزّأً. وإذا كان هناك أي انقسام، فهذا يعني أن الباقي كان معزولاً. وهذا هو الوصف الصحيح اليوم، فالولايات المتحدة أصبحت أكثر فأكثر حمائية وعُزلة، وتتصرف بنوبة غضب تجاه الصين على وجه الخصوص.

باختصار، إنها نوبة غضب لأن عصر الهيمنة الأمريكية الذي استمر لما يقرب من نصف قرن من عام ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠٠، بات يتضاءل ويختفي في الواقع، ولا يمكن أن نعدّ هذا الأمر نهاية للعولمة، لأن آسيا لوحدها تمثل ٦٠٪ من سكّان العالم، بينما تمثل أفريقيا حاليًا ١٨٪ من سكان العالم، وأفريقيا وآسيا ليستا متشرذمتين أو منعزلتين.

تعمل أفريقيا حالياً على إنشاء منطقة التجارة الحرّة القارية الأفريقية، وعلى تعزيز علاقاتها التجارية مع آسيا. وبالتالي فإن ما يتفكك هو الدور الأمريكي الأوروبي الذي كان مهيمناً لمدة قرنين بين عامي ١٨٠٠ و ٢٠٠٠، ولم يعد مهيمناً اليوم في العالم. وهو ما ينبغي بحثه.

وسأختتم بالقول إن التغيير في الجغرافيا السياسية هو أمرٌ حقيقي. وينبع ذلك من نقطة ترتبط بتنبؤ آدم سميث بأن العالم سيشهد إعادة توازن آخذة في التحقق. إن التشرذم ناتج بشكل أساسي عن أزمة وجودية حقيقية تواجهها الولايات المتحدة وأوروبا. يمكن تسميتها انهياراً عصبياً، نظراً لأن عدّة مئات من سنوات الهيمنة تقترب من نهايتها.

وهذا أمـر يصعب التعامل معـه للغاية لأن العقليـات متأصلة بعمق في أوروبا والولايـات المتحـدة، وعلـى أي حال، فـإن كل مـا تعرفـه الولايـات المتحدة عـن السـلوك السـيئ، قـد تعلمتـه من البريطانيين الذين كانـوا بمثابة مُعلمين طوال الوقـت وعلموا الولايات المتحدة كل شيء عن السـلوك الإمبريالي . كنا مجرد أطفال في الحي مقارنة ببريطانيا فـي هذا الصدد. لكن هذا الجزء من هذا العصر يقترب من نهايته.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا جميعاً هـو: ما هو موقف أفريقيا في كل هذا؟، لم تشـهد أفريقيـا ذلك النوع مـن النمو الديناميكي المسـتدام الذي شهدته آسيا، ويمكننـا البحث في أسـباب ذلـك. لكن السؤال الحقيقي هو: هل ستسلك أفريقيا هـذا المسـار مـن النمو السـريع خلال الأعوام الأربعين القادمة؟، إجابتي هي نعم.

أرى أن السـنوات الأربعـين القادمة يجـب أن تكـون فـترة نمو سـنوي لأفريقيـا بنسـبة(٨ـ١٠) ٪، أي ما يقارب ضعف المعدّل الحالي، وأن هذا أمـر ممكن، وأن الصين هي دليل على صحة المفهوم وأفضل نموذج يحتذى به لكيفيـة تحقيق ذلـك. ولا أقصد بالقدوة التشكيل السياسي تحديداً . لا يعـود تاريخ النظام السياسـي في الصـين إلى عـام ١٩٤٩، بل يعود تاريخـه إلى عام ٢٢١ قبـل الميلاد. لذا، فإن نظام الحكـم في الصين هو نظام حكم إداري مركزي بدأه (تشين تشيانغ دي) في عام ٢٢١ قبل الميلاد، وتم تنفيذه وتطويره من قبل سلالة هان من عام ٢٠٤ قبل الميلاد إلى عام ٢٢٠ ميلادي. لذا، لا تحاول تقليد ذلك تمامًـا . هذا يعتمد علـى الكثير من الممارسة على مدى ٢٠٠٠ عام. وكل مكان يحتاج إلى ثقافته السياسـية الخاصـة. لكن ما فعلتـه الصين هو إظهار أسـلوب التخطيـط، وكيفية التفكير في المستقبل، وطريقة تنفيذ استراتيجيات البنية التحتية طويلة الأجل، وكيفية رفع رأس المال البشري بشكل كبير لدى السـكّان على مدى جيلين لجعـل الصين دولـة متطورة ذات تقنية عالية تتصدر الآن معظم المجالات.

*فرصة افريقيا

ستشـكل أفريقيا ٢٥٪ من سكّان العالم بحلـول عـام ٢٠٥٠، وستشـكّل ٣٥٪ بحلـول عام ٢١٠٠. لـذا، يرجى التأكد مـن صحـة هـذه المعلومـات. أفريقيا سـتكون في قلب العالـم، و من البديهي أن يُشـار دائمـاً إلـى أن أفريقيـا لديها أصغر السـكّان عمراً في المعدّل. لديها قـوة عاملة شـابة متناميـة . يُطلق على هذا اسـم العائد أو الهبـة الديموغرافية. إن هـذا الكلام غير صحيح إذا قيل بهذه الطريقة. ما سـيجعل هـذا الأمر بمثابة عائـد ديموغرافي، خلاصتـه أن يكون هـذا العدد من الشـباب منـذوي التعليم العالي، وإلّا سيشـكلون عبئاً هائلاً على الشباب وعلى المجتمع وعلى العالم. ما نحتاجه هنا قبل كل شيء هو الاستثمار.

*اهمية التعليم

في التعليم، ليسـن في العام المقبل، أو بعـد ١٠ أو ٢٠ عامًـا، بل الآن وقد أصبح كل طفل يدرسـن عبر الإنترنت، ولديه جهاز ليتمكن من المشاركة في التعلم الرقمـي والاقتصاد الرقمي، وليكمل علـى الأقل المرحلة الثانوية العليا. وآمـل أن يأتي الكثير منهم ليتعلموا ريـادة الأعمال على أحدث مستوى. أرجو العمل في جميع أنحاء أفريقيا من أجل هذا، لأن هذا مشـروع على مسـتوى القـارة. أنتـم ثلث أكـبر ١,٥ مليـار نسـمة في العالم، الصـين والهند وأفريقيـا مجتمعة، وسـتصبحون أكبر بكثـير من الصين والهند قريبًا . لكن ١,٥ مليار شـخص يمثلون سـوقًا ضخمًـا للعمل فيه. هذا كل ما تحقق من مكاسـب الحجم داخل منطقة التجارة الحـرّة القارية الأفريقيـة. وآمل أن تتمكن شـبكة جامعية قويـة للغايـة في أفريقيا، مرتبطة بالطبع بالشـراكة مع بقية العـالم، ولكن بشـكل خاص داخل أفريقيا، مـن دفع هذا التوسّـع غير المسبوق في جودة التعليم والمعرفة والتكنولوجيا في جميع أنحاء القارة.

Google
Meta
TESL
SILICON VALLEY

دوغلاس ماكجريجور

٢٠٢٥/١٢/١٥

نهاية التفوق الجوي الأمريكي

أولاً: الملخص الاستراتيجي للتحول الجوي

تنهار استراتيجية التفوق الجوي التي اعتمدها الجيش الأمريكي لفترة طويلة تحت وطأة التطورات التكنولوجية في أنظمة الطائرات المسيّرة. فالطائرات المسيّرة، التي لا تُكلّف سوى جزء بسيط من تكلفة الطائرات المقاتلة، تتفوق الآن على القوة الجوية التقليدية، مما يجعل عقوداً من الاستثمار في المنصات المأهولة عملية غير مجدية.

تُظهر الصراعات الأخيرة في أوكرانيا والشرق الأوسط وغيرها كيف نجحت الطائرات المسيّرة في تحييد الطائرات المقاتلة وأنظمة الدفاع الجوي، كاشفةً عن عيوب قاتلة في الاستراتيجية الجوية الأمريكية. يستكشف هذا المقال التحول الجذري في الحرب الجوية، ونقاط ضعف التفوق الجوي التقليدي، وتداعيات ذلك على مستقبل القوة العسكرية الأمريكية.

ثانياً: الأزمة المؤسسية وإدراك الواقع الجديد

هناك نوع خاص من الصمت يخيم على مراكز قيادة القوات الجوية عندما ادرك كبار الضباط ان المنصات التي بنوها طول فترة خدمتهم لم تعد ذات صلة بالواقع، حيث لم تعد الطائرات المقاتلة التي هيمنت على الحروب الجوية لسبعة عقود من خلال التطور التكنولوجي ومهارة الطيارين، فائقةً بسبب نسخ متفوقة من نفس التكنولوجيا، بل بسبب أنظمة ذاتية التشغيل تكلف جزءاً صغيراً من تكلفة الطائرات التقليدية والتي يمكن إنتاجها بكميات تفوق قدرة الدفاعات الجوية التي صممت لعصر مختلف من الحروب.

لا يتعلق الأمر بالنكسة المؤقتة المتمثلة في خسارة الاشتباكات التكتيكية التي يمكن معالجتها من خلال تدريب أفضل أو تكتيكات محسنة، بل بالإدراك الخانق بأن النموذج الأساسي للقتال الجوي قد تغير تحت أقدام المخططين الذين استثمروا تريليونات الدولارات في منصات بشرية متطورة، بينما يقوم الخصوم بتطوير أسلحة ذاتية التشغيل رخيصة تحقق آثاراً استراتيجية دون الحاجة إلى البنية التحتية المكلفة التي تعتمد عليها القوة الجوية التقليدية.

ثالثاً: سقوط فرضيات السيادة الجوية التقليدية

إننا نشهد تلك اللحظة الآن، حيث يقوم المحللون العسكريون بدراسة الصراعات في أوكرانيا والشرق الأوسط وفي المواجهات الإقليمية الأخيرة، حيث نجحت أنظمة جوية بدون طيار تكلف آلاف أو عشرات الآلاف من الدولارات في الاشتباك مع طائرات مقاتلة تبلغ قيمتها عشرات أو مئات الملايين وتدميرها، وحيث ان اسراباً من الطائرات بدون طيار التي يمكن الاستغناء عنها بسهولة قد اخترقت الدفاعات الجوية التي كان من المفترض أن تكون منيعة، وحيث أصبحت نسب تبادل التكلفة غير متكافئة وغير مواتية للقوة الجوية التقليدية، لدرجة أن المفهوم الاستراتيجي الكامل للتفوق الجوي من خلال هيمنة المنصة قد انهار.

لقد درست على مدى عقود الحرب الجوية، والتطور التكنولوجي الذي دفع القتال الجوي من الطائرات ذات المحركات المروحية في الحرب العالمية الأولى مروراً بالطائرات النفاثة في الحرب الباردة وصولاً إلى منصات التخفي في الوقت الحاضر، والأنماط التاريخية التي تصبح من خلالها التقنيات العسكرية المهيمنة قديمة عندما يطور الخصوم أساليب تستغل نقاط الضعف الأساسية بدلاً من التنافس المباشر، وأقول لكم الآن، إننا نشهد إحدى تلك اللحظات النادرة في التاريخ العسكري حيث يتم تجاوز الأسلحة والمفاهيم التي تميزت لحقبة ما، ليس من خلال عمليات تحسين تدريجي، بل من خلال تحول ثوري يجعل الاستثمارات السابقة غير ذات صلة بالواقع.

ان الافتراض الذي حكم تخطيط القوات الجوية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، يكمن في ان السيطرة على المجال الجوي تتحقق من خلال الطائرات المقاتلة التي يقودها طيارون مدربون تدريباً عالياً ويستخدمون تكنولوجيا متفوقة لهزيمة طائرات العدو ويقمعون الدفاعات الجوية الأرضية، ولهذا فان تكلفة تطوير ونشر الطائرات القتالية المتطورة مبررة بفعاليتها مع عدم وجود بدائل قابلة للتطبيق، وأن القدرة الصناعية على إنتاج أعداد محدودة من المنصات المتقدمة من شأنها أن توفر مزايا حاسمة على الخصوم الذين يفتقرون إلى التطور التكنولوجي المكافئ، قد تم تجاوزها بشكل منهجي من خلال انتشار الأنظمة غير المأهولة التي تكلف جزءاً ضئيلاً من تكلفة الطائرات التقليدية والتي يمكن إنتاجها بأعداد وكميات هائلة تفوق قدرة صد الدفاعات الجوية، ولهذا فانها قد حققت نتائج، تظهر فاعليتها في القتال على الواقع، لا فقط بشكلٍ نظري.

رابعاً: دراسة قضية رقم (١) - الصراع في أوكرانيا كمختبر حربي

تقدم الأدلة المستقاة من النزاعات الأخيرة توثيقاً صارخاً لكيفية تغيير الطائرات بدون طيار بشكل جذري، حسابات الحرب الجوية، بطرق جعلت القوات الجوية التقليدية تكافح من اجل فهمها والتكيف معها. لقد أصبح الصراع في أوكرانيا بمثابة مختبر لحرب الطائرات بدون طيار، حيث استخدم كلا الجانبين أنظمة غير معتادة على نطاقات غير مسبوقة في التاريخ العسكري، مما كشف عن قدرات ونقاط ضعف كانت نظرية في السابق، لكنها اصبحت موثقة الآن من خلال آلاف الاشتباكات القتالية.

أثبتت الطائرات المسيرة الصغيرة رباعية المراوح، التي تكلف بضع مئات الدولارات ويمكن شراؤها تجارياً، فعاليتها المدمرة في تحديد مواقع المركبات المدرعة، وتحديد أهداف الضربات المدفعية، وحتى شن هجمات مباشرة من خلال إسقاط الذخائر على الدبابات ومواقع المشاة. إن القدرة على تشغيل هذه الأنظمة بأقل قدر من التدريب، وتعويض الخسائر على الفور من خلال سلاسل الإمداد التجارية، واستخدامها بأعداد تجعل الدفاع الشامل مستحيلاً، قد خلقت بيئة تجد فيها القوات المدرعة التي كان من المفترض أن تهيمن على ساحة المعركة نفسها عرضة للأسلحة التي تم تجاهلها من قبل التخطيط العسكري إلى حد كبير، حتى أصبحت فعاليتها لا جدال فيها.

أظهرت الطائرات المسيرة التكتيكية الأكبر حجماً، بما في ذلك أنظمة مثل طائرة «بيكتار» التركية التي اكتسبت شهرة في وقت مبكر من الصراع الأوكراني، أن المنصات غير المأهولة التي تكلف بضعة ملايين من الدولارات يمكنها بنجاح الاشتباك مع أنظمة الدفاع الجوي والمركبات المدرعة وحتى السفن وتدميرها، محققة بذلك تأثيرات تتطلب تقليدياً طائرات مقاتلة متطورة تقوم بمهام خطيرة مع احتمال كبير لفقدان الطيار.

إن هذه الأنظمة يمكن تشغيلها بواسطة أطقم ذات تدريب أقل بكثير مما يحتاجه الطيارون المقاتلون، وأن خسارتها تمثل تكاليف مقبولة بدلاً من كونها انتكاسات استراتيجية، وأنها تستطيع التحليق فوق ساحات المعارك لساعات، مما يوفر مراقبة مستمرة وقدرة على الضرب، وقد كشفت عن مزايا لا يمكن للطيران التقليدي أن يضاهيها.

لقد أدت هذه القدرات الجديدة الى تطور وتكيف كل من القوات الأوكرانية والروسية، حيث يقوم كل جانب بتطوير تدابير مضادة وتكتيكات جديدة وتوسيع لاستخدام الطائرات بدون طيار في الوقت ذاته، إلى خلق ضغط يسرع عملية التطوير بشكل أكبر بكثير من عمليات الاستحواذ المتعمدة التي تحكم عمليات الشراء العسكري التقليدية.

حيث يشمل الابتكار الذي يحدث في بيئة الصراع، تسليح التكنولوجيا التجارية الجاهزة بطرق لم تتوقعها المؤسسات الدفاعية على الإطلاق، من خلال تعديل طائرات السباق بدون طيار ذات الرؤية من منظور الشخص الأول والتي يستخدمها المتحمسون للرياضة، لتقوم بحمل شحنات متفجرة، وقد أثبتت فعاليتها بشكل ملحوظ في اختراق المباني، وضرب المركبات المدرعة في نقاط واماكن ضعفها مثل الدروع العلوية ضعيفة، وفي استهداف الأفراد بطرق لا تستطيع الأسلحة التقليدية القيام بذلك.

إن تكلفة هذه الأنظمة الرخيصة والتي تُقاس بمئات الدولارات، بالإضافة إلى فعاليتها، قد خلقت نسب تبادل مواتية للغاية للمهاجم لدرجة أن القوات المدافعة لا تستطيع تحقيق التفوق الجوي بالوسائل التقليدية. حيث ان الطائرات المقاتلة التقليدية التي ستكون مطلوبة لدوريات المجال الجوي وإسقاط هذه الطائرات المسيرة الصغيرة، غير قادرة فعلياً على الاشتباك مع الأهداف الصغيرة جداً، لأن أنظمة الرادار الخاصة بها لا تستطيع تتبع تلك الاهداف بشكل موثوق كما انها لا تستطيع الاستمرار بالبقاء والعمل ضمن الارتفاعات المنخفضة. ولابد من إدراك، أن التفوق الجوي بالمعنى التقليدي أمر مستحيل عندما يستطيع الخصوم استخدام آلاف الأنظمة الصغيرة غير المأهولة التي تهدد مجتمعة كل عنصر من عناصر العمليات العسكرية.

خامساً: التحدي الصناعي الصيني وحرب الاستنزاف

عرفت الجيوش عالمياً الآثار الاستراتيجية التي انبثقت من التجربة الأوكرانية، من خلال ملاحظة أن الدروس لا تنطبق فقط على الظروف المحددة لذلك الصراع، ولكن أيضاً على الأسئلة الأساسية حول كيفية إدارة الحرب الجوية. وقد أولى الجيش الصيني اهتماماً خاصاً لهذه التطورات، حيث استثمر بشكل كبير في تكنولوجيا الطائرات بدون طيار عبر الطيف الكامل، من الأنظمة التكتيكية الصغيرة إلى المنصات الاستراتيجية الكبيرة.

إن القدرة الإنتاجية التي أظهرتها الصين في تصنيع الطائرات بدون طيار التجارية، حيث تهيمن الشركات الصينية على الأسواق العالمية، توفر أساساً للتطبيقات العسكرية والتي لا تستطيع الدول الغربية مجاراتها نظراً لضمور قواعدها التصنيعية الخاصة. إن إدراك أن الصين قادرة على إنتاج أنظمة بدون طيار بكميات تُقاس بعشرات أو مئات الآلاف الدولارات، بينما يُقاس إنتاج المقاتلات الأمريكية بالعشرات سنوياً، يخلق خللاً لا يمكن لأي قدر من التطور التكنولوجي التغلب عليه، خاصة عندما ينطوي القتال على استنزاف امكانيات الاخر بشكل اكبر من امكانية استبدالها.

سادساً: دراسة حالة (٢) - الشرق الأوسط وحروب «التكلفة»

لقد قدمت الصراعات في الشرق الأوسط أدلة إضافية على فعالية الطائرات بدون طيار ضد الدفاعات الجوية المتطورة وضد الأهداف التي افترضت التخطيطات العسكرية التقليدية أنها آمنة.

إن استخدام الحوثيين للطائرات بدون طيار ضد البنية التحتية السعودية، بما في ذلك الهجمات على منشآت آرامكو النفطية التي أدت إلى انخفاض مؤقت في إنتاج النفط العالمي، أظهر أن الجهات الفاعلة غير الحكومية ذات الموارد المحدودة يمكنها ضرب أهداف في عمق المجال الجوي المحمي وتحقيق الأثار الاستراتيجية، بالرغم من مواجهة الدفاعات الجوية المجهزة بأنظمة أمريكية وأوروبية متطورة، وان تكلفة الطائرات المسيرة المستخدمة في هذه الهجمات تم قياسها ببضع عشرات الآلاف من الدولارات فيما ادت الى أضرار تقدر بمليارات الدولارات، كما سببت تعطيل الأسواق على مستوى العالم، مما يوفر ربما أوضح دليل على كيفية امكانية الحرب غير المتكافئة باستخدام الأنظمة غير المأهولة أن تسمح للأطراف الأضعف بفرض تكاليف على خصومها اكثر بكثير ممن يمتلكون تفوقاً عسكرياً تقليدياً.

لقد أجبرت التجربة الإسرائيلية مع تهديدات الطائرات بدون طيار من حزب الله والجهات الفاعلة الإقليمية الأخرى على الاعتراف بأن أنظمة الدفاع الجوي المطورة للتهديدات التقليدية، بما في ذلك الطائرات المقاتلة والصواريخ الباليستية، غير كافية لمواجهة أسراب الأنظمة الصغيرة غير المأهولة التي يمكنها إغراق الدفاعات من خلال أعدادها حيث واجه نظام القبة الحديدية، الذي أثبت فعاليته ضد الصواريخ، تحديات عند التعامل مع الطائرات المسيرة التي تطير بسرعة أقل من الحد الأدنى لسرعات الاشتباك التي تم اعداد صواريخ الاعتراض من أجلها. إن المقاطع العرضية الرادارية الحالية صغيرة جداً بحيث لا تسمح بالتتبع الموثوق ويمكن استخدامها في هجمات منسقة من اتجاهات متعددة تقسم الانتباه الدفاعي وفي حين ينطلق الصاروخ الاعتراضي من نظام القبة الحديدية فهو يكلف حوالي ٥٠ ألف دولار، بينما تكلف الطائرة بدون طيار بضعة آلاف الدولارات، فيخلق ذلك مواجهة في التكاليف تؤدي الى اقتصاديات غير مستدامة حيث يستنفد المدافع الذخائر باهظة الثمن بشكل أسرع من إمكانية تجديدها بينما يستطيع المهاجم تحمل تكاليف مواصلة العمليات إلى أجل غير مسمى.

سابعاً: انكشاف المنصات المتقدمة (F-٣٥ و F-٢٢) والبنية التحتية

إن الآثار المترتبة على التفوق الجوي الأمريكي، التي كانت أساس الاستراتيجية العسكرية على مدى سبعة عقود، عميقة وتشكل تحدياً جوهرياً لهيكل القوات والمفاهيم التشغيلية حيث يتم دعمها بمئات مليارات الدولارات من الإنفاق السنوي، وان الطائرات المقاتلة التي تمثل قمة التكنولوجيا العسكرية الأمريكية، بما في ذلك طائرة F-٣٥ التي استهلكت أكثر من ١,٥ تريليون دولار في تكاليف دورة حياتها وطائرة F-٢٢ التي كان من المفترض أن توفر سيطرة جوية لا مثيل لها، بما انها مصممة بشكل مثالي لمواجهة الطائرات المتطورة الأخرى في سيناريوهات توفر فيها أجهزة الاستشعار والأسلحة الخفية الخاصة بها مزايا كان لابد ان تكون حاسمة ضد أسراب الطائرات المسيرة الصغيرة التي تعمل على ارتفاعات منخفضة، لكن هذه الانظمة الصغيرة كانت تظهر قيماً ضئيلة في اجهزة الاستشعار مما يسبب عدم وضوحها وبهذا تصبح الطائرات المقاتلة نفسها عرضة للتهديدات بما انها لم تُصمم لمواجهتها أبداً.

إن طائرة F-٣٥ واحدة تكلف أكثر من ١٠٠ مليون دولار يمكن إسقاطها بواسطة طائرة بدون طيار تكلف أقل من الراتب الشهري للطيار الذي يقود الطائرة المقاتلة يخلق مفارقة استراتيجية حيث تصبح التكنولوجيا العسكرية الأكثر تقدماً عبئاً بدلاً من أن تكون أساسا حيث تواجه القواعد الجوية التي تعتمد عليها القوة الجوية الأمريكية للوصول إلى العالم تهديدات من هجمات الطائرات بدون طيار التي لا تستطيع الدفاعات الحالية التصدي لها بشكل كافٍ وتشكل مدارج الطائرات ومخازن الوقود ومستودعات الذخائر ومواقف الطائرات، التي تعد بنية تحتية ضرورية للعمليات الجوية، أهدافاً مركزة يمكن ضربها بواسطة طائرات بدون طيار التي تخترق الدفاعات المصممة لمواجهة التهديدات التقليدية، وقد يؤدي الوقت اللازم لإصلاح الأضرار الناجمة عن ضربات الطائرات المسيرة الناجحة إلى توقف العمليات الجوية لفترات طويلة. وقد خلقت هذه نوافذ وثغرات يمكن للخصوم استغلالها بحرية، بينما تعيد القوة الجوية الأمريكية بناء نفسها. إن القواعد الامامية في أماكن مثل «أوكيناوا» و«غوام» وفي جميع أنحاء الشرق الأوسط، والتي من المفترض أن توفر الوجود اللازم لإبراز القوة، أصبحت عرضة بشكل متزايد لهجمات الطائرات بدون طيار التي يمكن أن تنفذها جهات فاعلة حكومية أو قوات بالوكالة، مما يخلق إدراكاً بأن جغرافية العمليات الجوية الأمريكية تفترض بيئة متساهلة يمكن للخصوم الذين يمتلكون امكانيات الطائرات بدون طيار أن يحرموها منها.

ثامناً: التحول الاقتصادي والعقائدي للقوة الجوية

إن هياكل التكلفة التي حكمت القوة الجوية لعقود من الزمن تنعكس بفعل انتشار الطائرات بدون طيار بطرق تجعل الأساليب التقليدية غير مستدامة اقتصادياً. إن النموذج الذي تقوم فيه المنصات باهظة الثمن التي يقودها طيارون مدربون تدريباً عالياً بتنفيذ مهام يكون فيها بقاؤهم على قيد الحياة أمراً بالغ الأهمية لأن خسارتهم تمثل انتكاسة استراتيجية لا يمكنه منافسة الخصوم الذين يستخدمون أنظمة قابلة للاندثار حيث تكون الخسائر الفردية غير مؤذية من الناحية التكتيكية والاستراتيجية. إن مسار تدريب الطيارين المقاتلين الذي يتطلب سنوات وملايين الدولارات لكل فرد لتطوير الكفاءة القتالية يخلق اختناقات تحد من توسيع القوات الذي يتطلبه الصراع المستمر. بينما يمكن تدريب مشغلي الطائرات بدون طيار في غضون أسابيع أو أشهر بتكلفة أقل بكثير. بالاضافة الى ان متطلبات الصيانة للطائرات المقاتلة المتطورة تستهلك أجزاء كبيرة من ميزانيات الدفاع والتي تحد من نسبة المنصات المتاحة للعمليات في أي وقت. بينما الطائرات بدون طيار تتطلب الحد الأدنى من الصيانة والتي يمكن تخزينها ونشرها ببنية تحتية أقل بكثير.

إن الآثار العقائدية المترتبة تدفع الى إعادة النظر في المفاهيم التي كانت أساسية لنظرية القوة الجوية منذ فترة الحرب الداخلية عندما صاغ الاستراتيجيون مثل «دوهيد» و «ميتشل» رؤى حول كيفية توفير السيطرة على المجال الجوي لمزايا حاسمة. لقد كان مبدأ ضرورة إرساء التفوق الجوي قبل أن تتمكن القوات البرية أو البحرية من العمل بفعالية هو المبدأ الذي وجه التخطيط لما يقرب من قرن من الزمان، مع استثمار كبير في القدرات المصممة لقمع الدفاعات الجوية للعدو وإسقاط طائرات العدو كمتطلبات أساسية للعمليات العسكرية الناجحة. إن ظهور أسراب الطائرات بدون طيار يمثل تحدياً جوهرياً لهذا المفهوم لانها لا يمكن قمعها بشكل شامل بسبب اعدادها الكبيرة جداً بالاضافة الى امكانية استبدالها بسهولة كبيرة، وقد خلق بيئات لا يمكن فيها تحقيق التفوق الجوي بالمعنى التقليدي بغض النظر عن الجودة أو كمية الطائرات المقاتلة المتاحة. إن الإقرار بأن العمليات العسكرية قد تحتاج إلى المضي قدماً في المجال الجوي المتنازع عليه، حيث لا يحقق أي من الجانبين الهيمنة فيه، يمثل عودة إلى الظروف التي ميزت الحرب قبل أن تصبح القوة الجوية حاسمة، مما يتطلب إجراء تعديلات في جميع الوظائف العسكرية التي افترضت أن التفوق الجوي سيكون متاحاً.

تاسعاً: أزمة الإنتاج وسلاسل التوريد العالمية

تكشف الاعتبارات القائمة على الصناعة، ربما عن أكثر التحديات صعوبة في معالجة ثورة الطائرات بدون طيار، لأنها تعكس حقائق هيكلية لا يمكن تغييرها بسرعة، بغض النظر عن الموارد المخصصة لها. تطورت صناعة الطيران الأمريكية لإنتاج الأعداد القليلة من المنصات المتطورة للغاية، من خلال عمليات تركز على مراقبة الجودة والأداء التقني والامتثال التنظيمي. إنشاء جداول زمنية للإنتاج تُقاس بالسنوات وتكاليف تحد من عمليات الشراء إلى عشرات الطائرات سنوياً، حتى بالنسبة للبرامج التي تحظى بوضع الأولوية. توفر القدرة الصناعية الصينية للإنتاج الضخم للإلكترونيات الاستهلاكية والطائرات بدون طيار التجارية أساساً للتطبيقات العسكرية التي يمكن أن تولد أنظمة غير مأهولة بمعدلات تُقاس بالآلاف شهرياً، مما يخلق مزايا كمية لا يمكن للتفوق التكنولوجي الأمريكي أن يعوضها عندما ينطوي القتال على حرب استنزاف، حيث يحدد البدلاء من يمكنه مواصلة العمليات.

إن الاعتماد على سلسلة التوريد الذي يؤثر على إنتاج الطائرات بدون طيار يخلق نقاط ضعف استراتيجية تزيد من شدة التحدي. يتم تصنيع أشباه الموصلات وأجهزة الاستشعار والبطاريات والمكونات الأخرى التي تتطلبها الأنظمة غير المأهولة إلى حد كبير في آسيا، حيث تهيمن الصين على إنتاج العديد من الفئات، وتنتج تايوان أشباه الموصلات الأكثر تقدماً التي تعتمد عليها الأنظمة العسكرية المتطورة. إن القدرة الصناعية اللازمة لشن حرب الطائرات بدون طيار على نطاق واسع تتركز في المنطقة التي من المرجح أن يحدث فيها سيناريو الصراع الأكثر احتمالاً، يخلق احتمال أن المحاولات الأمريكية لزيادة إنتاج الطائرات بدون طيار ستتعرض لقيود بسبب اضطرابات سلسلة التوريد في اللحظة التي تكون فيها هذه القدرة في أمس الحاجة إليها. إن الجهود المبذولة لإعادة توطين الصناعات التحويلية الحيوية وتطوير سلاسل التوريد البديلة تسير ببطء وتواجه رياحاً اقتصادية معاكسة كبيرة حيث تقاوم الشركات نقل الإنتاج الذي يكون أكثر ربحية في المواقع الحالية.

عاشراً: وضع الحلفاء والدروس المستفادة من التاريخ

تزيد التداعيات على القوات الجوية المتحالفة من حدة التحديات الأمريكية لأن الخدمات الأصغر التي يديرها الشركاء الأوروبيون والآسيويون تواجه صعوبات أكبر في التكيف مع حرب الطائرات بدون طيار نظراً لمواردها المحدودة وقدراتها الصناعية. إن حلفاء الناتو الذين أكملت قوتهم الجوية القدرات الأمريكية والذين كانت مشاركتهم في عمليات التحالف عنصراً مهماً في الاستراتيجية الأمريكية، يشغلون أساطيل مقاتلة أكثر تقييداً عددياً من القوات الأمريكية، وتواجه تقادماً مماثلاً في مواجهة تهديدات الطائرات بدون طيار التي لم تُصمم أنظمتهم لمواجهتها. يزداد العبء الواقع على الولايات المتحدة لتوفير القدرات التي يفتقر إليها الحلفاء، حيث تثبت القوة الجوية التقليدية عدم كفايتها، وحيث تتطلب الأنظمة غير المأهولة اللازمة للعمليات الفعالة استثمارات لم يضعها أعضاء التحالف ضمن أولوياتهم.

إن أوجه التشابهات التاريخية مع التحولات السابقة في التكنولوجيا العسكرية توفر تحذيرات بشأن عواقب الفشل في التكيف، ودليلاً على أن الجيوش الناجحة تدرك التغيير الثوري وتتبناه على الرغم من المقاومة المؤسساتية. شهد الانتقال من السفن الحربية إلى حاملات الطائرات في منتصف القرن العشرين ديناميكيات مماثلة، حيث تم استبدال المنصة المهيمنة في تلك الحقبة بقدرات غيرت بشكل جذري كيفية عرض القوة البحرية، وحققت الدول التي تكيفت بنجاح مزايا مهمة، بينما عانى أولئك الذين تشبثوا بالمفاهيم البالية من الهزيمة، نجحت البحرية الأمريكية في اجتياز هذا التحول جزئياً من خلال القيادة الرؤيوية للضباط الذين أدركوا أن الطيران على حاملات الطائرات سيهيمن على الحرب البحرية المستقبلية على الرغم من الالتزام المؤسسي بالسفن الحربية التي حددت الخدمة، وجزئياً من خلال الوظيفة القسرية للقتال الفعلي في حرب المحيط الهادئ والتي أظهرت بشكل لا لبس فيه أي المنصات كانت فعالة وأيها كانت بالية.

يمثل الانتقال إلى الأنظمة غير المأهولة نقطة تحول مماثلة، حيث ستكون المؤسسات الناجحة هي تلك التي تدرك الحقائق المتغيرة وتجري تحولاً جذرياً على الرغم من الاضطراب الذي يسببه ذلك لإنشاء البرامج والمسارات المهنية والعلاقات الصناعية. يواجه سلاح الجو تحديات خاصة نظراً لأن هويته المؤسسية مبنية على الطيران المأهول، ولأن هيئة الضباط تتكون إلى حد كبير من طيارين تعتمد خبرتهم وتقدمهم الوظيفي على منصات يهدد انتشار الطائرات بدون طيار بجعلها قديمة. إن مقاومة التحول ليست مجرد جمود بيروقراطي، بل تعكس حالة من عدم اليقين الحقيقي بشأن هيكل القوة والمفاهيم التشغيلية التي ستكون فعالة في البيئة الناشئة. بالإضافة إلى النفور من المخاطرة الذي يفضل الحفاظ على القدرات المفهومة حتى لو كانت غير كافية على تبني البدائل التي تكون فعاليتها أقل يقيناً.

الحادي عشر: الاقتصاد السياسي لمشتريات الدفاع والردع

إن الخيارات التي تواجهها القيادة الأمريكية فيما يتعلق بالتكيف مع ثورة الطائرات بدون طيار تتعقد بسبب القيود المالية والمطالب المتنافسة التي تحد من الموارد المتاحة للتحول الشامل. حتى لو كان الإجماع السياسي يدعم هذا التغيير، فإن الاستثمار اللازم لتطوير عقيدة استخدام الطائرات بدون طيار على نطاق واسع، وشراء الأنظمة بكميات كافية لتوفير قدرات فعالة ضد الخصوم النظراء، وإنشاء القدرة الصناعية للإنتاج المستدام، وتدريب الأفراد اللازمين لتشغيل هذه الأنظمة وصيانتها، سيتطلب عشرات المليارات سنوياً لسنوات قبل ظهور القدرة التشغيلية. تشمل تكاليف الفرصة البديلة لمثل هذا الاستثمار انخفاض شراء المنصات التقليدية، والفجوات المحتملة في القدرات خلال فترات الانتقال، والقبول بضرورة إلغاء بعض البرامج الحالية لتحرير الموارد للأولويات الجديدة.

إن النقاشات المتعلقة بهيكل القوات التي قد تثيرها عملية إعادة التوزيع هذه لا تقتصر على مجرد حجج مجردة حول الحروب المستقبلية، بل تشمل أيضاً آثاراً ملموسة على شركات المقاولات الدفاعية، وعلى المنشآت العسكرية، وعلى الدوائر الانتخابية حيث توفر مرافق الإنتاج والقواعد فرص العمل والنشاط الاقتصادي. يخلق الاقتصاد السياسي لمشتريات الدفاع دوائر انتخابية قوية للحفاظ على البرامج الحالية بغض النظر عما إذا كانت نتائج المحاكاة في تجربة القتال تثبت أنها كافية لمواجهة التهديدات المعاصرة.

تتمتع خطوط إنتاج الطائرات المقاتلة التي توفر آلاف الوظائف في الولايات التي يمثلها رؤساء لجان الكونغرس النافذون بحماية سياسية لا يمكن التغلب عليها بسهولة من خلال التحليلات التي تُظهر أن هذه المنصات قديمة. مما يخلق ديناميكية تستمر فيها البرامج على الرغم من وجود أدلة على أنها لا تقدم قدرات تبرر تكاليفها.

تُضيف أبعاد الرسائل الاستراتيجية للتكيف تعقيدات إضافية، لأن الاعتراف بأن قدرات القوة الجوية الحالية غير كافية للصراع مع الأقران، يُخاطر بتقويض الردع من خلال الإشارة إلى الضعف للخصوم الذين قد يتشجعون على اختبار العزيمة الأمريكية. إن تصنيف نتائج المحاكاة التي تُظهر أن الطائرات الأمريكية معرضة لأسراب الطائرات بدون طيار يخدم جزئياً لمنع الخصوم من الحصول على تأكيد لنقاط الضعف التي يشتبهون بها. لكنها تمنع أيضاً نوع النقاش العام الذي قد يولد ضغطاً سياسياً من أجل الإصلاح. إن التوازن بين الحفاظ على الردع من خلال إظهار الثقة والقيام بالتكيف الذي تتطلبه فجوات القدرات يخلق توتراً بين الاستقرار قصير المدى والفعالية طويلة المدى. مع تفضيل الضغوط المؤسسية عموماً للأول على الثاني، فإن آثار النظام العالمي تتجاوز التوازن العسكري لتشمل أسئلة جوهرية حول توزيع القوة والعلاقات الدولية.

الثاني عشر: الخاتمة والتوقعات المستقبلية

إن المزايا التي كانت تتمتع بها الدول الصناعية المتقدمة على الدول النامية من خلال التفوق وأنظمة الأسلحة المتطورة تتلاشى مع تزايد فعالية الأنظمة غير المأهولة التي يمكن أن تنتجها الدول ذات القدرة التصنيعية الأساسية ضد أكثر الطائرات المقاتلة والدفاعات الجوية تطوراً. إن انتشار تكنولوجيا الطائرات بدون طيار إلى جهات فاعلة غير حكومية وإلى دول لم تكن قادرة سابقاً على بسط نفوذها يخلق بيئة أمنية أكثر تنازعاً وغير قابلة للتنبؤ، حيث لا يمكن افتراض الهيمنة العسكرية الأمريكية، وحيث تواجه التدخلات تهديدات من خصوم يستخدمون قدرات كانت متاحة سابقاً فقط للمنافسين النظراء.

إننا نقف عند إحدى تلك اللحظات النادرة التي يُحدث فيها التغيّر التكنولوجي تحولاً جذرياً في الحرب بطرق تجعل المفاهيم السابقة غير كفوءة، وتتطلب التكيف على الرغم من الحواجز المؤسسية والسياسية والاقتصادية الهائلة التي تعترض التغيير. لقد دمرت ثورة الطائرات بدون طيار ٧٠ عاماً من استراتيجية التفوق الجوي التي بُنيت حول الطائرات المأهولة التي تحقق الهيمنة من خلال التطور التكنولوجي ومهارة الطيار، واستبدلتها بنموذج تكون فيه الكمية أهم من الجودة، حيث يمكن للأنظمة المستهلكة أن تتغلب على الدفاعات المتطورة، وحيث تحدد القدرة الصناعية على إنتاج الأسلحة على نطاق واسع، نتائج أكثر من خصائص أداء المنصات الفردية. يكمن الخيار فيما إذا كانت المؤسسات العسكرية الأمريكية قادرة على التكيف بسرعة وشمولية كافيتين للبقاء فعالة في هذه البيئة المتغيرة، أو ما إذا كان الالتزام بالقدرات الموروثة ومقاومة التغيير الجذري سيؤدي إلى قوات مُحسّنة لحروب لن تُخاض، بينما تكون غير كافية للصراعات التي ستحدد بقاء الأمة.

الأسئلة التحليلية للنقاش:

أريد أن أسمع تحليلكم في التعليقات أدناه:

أولاً: هل تعتقد أن الأنظمة غير المأهولة قد جعلت الطائرات المقاتلة المأهولة قديمة الطراز في الصراع مع نظرائها، أم أن الطائرات المقاتلة المتطورة تحتفظ بمزايا في سيناريوهات محددة تبرر استمرار اقتنائها على الرغم من عيوب التكلفة التي تواجهها في مواجهة أسراب الطائرات بدون طيار؟

ثانياً: هل يمكن للقاعدة الصناعية الدفاعية الأمريكية أن تتكيف بسرعة كافية لإنتاج أنظمة غير مأهولة على النطاق الذي تتطلبه حرب الطائرات بدون طيار؟ أم أن المزايا الهيكلية التي تمتلكها الصين في القدرة التصنيعية تخلق فجوة لا يمكن التغلب عليها بأي قدر من الاستثمار ضمن الأطر الزمنية؟

كيشور محبوباني

معضلة أستراليا: لماذا تبقى الصين، بينما قد تغادر أمريكا

المصادر:

إقتباسات من أطاريح وكتابات البروفيسور كيشورمحبوباني

كيشور محبوباني، هو دبلوماسي من سنغافورة، شغل منصب رئيس مجلس الأمن الدولي(٢٠٠١ـ ٢٠٠٢)،والممثل الدائم لستغافورة في الأمم المتحدة(١٩٨٤ـ١٩٨٧). وهو استشاري واستاذ العلوم السياسية وتطبيقات السياسات العامة في جامعة سنغافورة الوطنية، واستاذ زائر في جامعة هارفارد.

من أبرز مؤلفاته:

ـ العيش في القرن الآسيوي؛ مذكرات غير دبلوماسية ـ ٢٠٢٤.
ـ هل ربحت الصين؟، التحديات الصينية للهيمنة الأميركية ـ ٢٠٢١.
ـ التقارب العظيم: آسيا والغرب ومنطق العالم الواحد ـ ٢٠١٤.

الجغرافيا والمصير: الصين بوصفها حارة دائمة والواقعية الآسيوية الجديدة.

١. قوّة الجغرافيا مقابل الآيديولوجيا.

حين نتعرّض للسياسة العالمية بالبحث والنقاش، فإننا غالباً ما نركز على الآيديولوجيا. ونناقش الديمقراطية مقابل الاستبداد. أو نناقش الرأسمالية مقابل الشيوعية. أو نناقش القيم والمبادئ والأنظمة. كما تهيمن هذه النقاشات على الصحف والبرامج والحوارات التلفزيونية، لكنها غالباً ما تصرف انتباهنا عن حقيقة أعمق وأكثر ديمومة، مفادها أن هناك قوّة تكون أقوى من الآيديولوجيا.

قوّة أقوى من معدّلات النمو الاقتصادي أو الإنفاق العسكري. إنها العامل الوحيد الذي لا يتغير، بصرف النظر عمن يتم انتخابه، وبصرف النظر عن الحزب الفائز، وعن كيفية ارتفاع الأسواق أو إنخفاضها، فإن تلك القوة هي «الجغرافيا».

إن الجغرافيا لا تلقي الخطابات أبداً، كما أنها لا تترشح لشغل المناصب العامة أبداً. ولا يتم طرحها أبداً على طاولة المفاوضات. ومع ذلك، فهي تتخذ قرارات أكثر مما سيتخذه أي قائد على الإطلاق. لأن الجغرافيا هي التي تسود في نهاية المطاف.

غالباً ما يقلل الأمريكيون من شأن الجغرافيا لأنهم محظوظون بها. إنهم يعيشون في قارة شاسعة غنيّة بالموارد. وهي محمية بمحيطين هائلين، الأطلسي والهادئ. كما أن لدى الولايات المتحدة جيران ودودون وأضعف منها، سواء الى الشمال أو الى الجنوب.

إن هذه الجغرافيا خلقت شعوراً عالياً بالأمان، وبالمسافة. وبأن الزمان والمكان دائماً ما يقفان في صف أمريكا. وهي تسمح للأمريكيين بالاعتقاد بأنهم يستطيعون اختيار متى وأين يتفاعلون مع العالم.

٢. الحقيقة الصينية والواقع الآسيوي المزدحم.

أمّا قارّة آسيا، فإنها تعيش في ظل ظروف مختلفة تماماً. آسيا ليست أرضاً مفتوحة. بل إنها غرفة مزدحمة بالمليارات، ومئات الملايين من الناس، وبالحضارات القديمة، وبالحدود المتقاربة. وفي هذه الغرفة المزدحمة، يشغل بلد واحد مساحة أكبر من جميع الدول الأخرى مجتمعة، ذلك البلد هو الصين.

لقد عاشت المجتمعات الآسيوية مع هذا الواقع لآلاف السنين. كما أن فيتنام، وكوريا، واليابان، ودول جنوب شرق آسيا، جميعها تعلمت الدرس نفسه، وأحياناً بطريقة مؤلمة. وعرف الجميع بأن الصين ليست مشكلة مؤقتة يجب حلها. الصين ليست وجهاً يُحتمل تحمله. إن الصين هي حقيقة ثابتة.

أمّا الولايات المتحدة، فهي على النقيض من ذلك، إذ نجدها حديثة العهد بآسيا. ولم تدخل حيّز الفعل الدولي الحقيقي إلا بعد الحرب العالمية الثانية. لقد جلب ذلك الدخول الأمن. وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة. كما أنه أعاد النظام، وقد رحّب الآسيويون بذلك. لكنّ هناك تفاهماً ضمنياً في جميع أنحاء المنطقة. نادراً ما يتم التحدّث عنها بصوت عال، ولكنه يمثل شائعة واسعة الانتشار. إن الولايات المتحدة هي دولة «زائرة»، أما الصين فهي دولة « مقيمة». الصين هي الجارة الدائمة. وهي الحقيقة الوحيدة التي لا تستطيع آسيا الهروب منها.

٣. الحسابات النفسية لـ «الجار الأبدي» والمعضلة الأسترالية.

ولا يوجد مكان تتجلى فيه هذه الحقيقة النفسية بشكل أوضح من بلد غير متوقع، وهو أستراليا. أود اليوم أن أشرح عملية حسابية نفسية عميقة تجري في جميع أنحاء آسيا. ولم يُنص على ذلك في المعاهدات. كما لا يتم الإعلان عنها في المؤتمرات الصحفية، لكنها تؤثر على كل قرار رئيسي، من طوكيو إلى جاكرتا، ومن سيول إلى هانوي، ومن نيودلهي إلى كانبرا. إنها حسابات الجار الأبدي. يدرك القادة الآسيويون أمراً يكافح الكثيرون في واشنطن لقبوله. بعد ٥٠ أو ١٠٠ عام، قد تقرر الولايات المتحدة العودة إلى الوطن (أي أن تنكفئ وتعود الى إقليمها الوطني). وقد تقرر أن المحيط الهادئ واسع للغاية، وأن التحديات الداخلية باتت ملحة للغاية، وأن آسيا لم تعد تبرر التكلفة. إن هذا ليس انتقاداً، بل هو مجرد ملاحظة. لقد غادرت الولايات المتحدة من قبل، ولكن بعد ١٠٠ عام أو ١٠٠٠ عام، ستظل الصين موجودة. وأن هذه المغادرة ليست من ضمن الآيدولوجيا، بقدر ماهي «الجغرافيا» التي حددت أو تحدد هذه المغادرة. وان الجغرافيا هي التي تشكل المصير.

ويفسر لنا هذا الواقع سبب الرفض الآسيوي لجهود عزل الصين، ولماذا تقاوم تشكيل كتلة جديدة في الحرب الباردة، ولماذا تتجنب أن تُجبر على اختيار أحد الجانبين.

ولفهم هذا المنطق بوضوح، يجب أن نبدأ بأستراليا.

تواجه أستراليا النسخة الأكثر شدّة وصلابة من المعضلة الاستراتيجية التي تواجهها آسيا. ومن الناحية الثقافية، فإن أستراليا هي دولة غربية عبر التاريخ. ومن الناحية السياسية، فهي ايضاً دولة غربية، و تتشارك اللغة والمؤسسات والتقاليد مع بريطانيا والولايات المتحدة. وهي عضو أساسي في شبكة الاستخبارات «العيون الخمس» (وهو تحالف إستخباري بين الولايات المتحدة، وبريطانيا، وأستراليا، وكندا، ونيوزلاندا، والمعروف اختصارا «FVEY» ، يعمل وفق المعاهدة البريطانية الأميركية، ويعود تاريخ تشكيله رسمياً الى ١٩٤٦).

وقد قاتلت أستراليا إلى جانب الولايات المتحدة في؛ فيتنام، والعراق، وأفغانستان. وفي إحدى المرات، وصف أحد رؤساء الولايات المتحدة أستراليا بأنها بمثابة « نائب الشريف»! الأمريكي في المنطقة. لكن الجغرافيا تروي قصّة مختلفة.

إن أستراليا لا تقع ضمن العالم الأطلسي، بل تقع على حافة آسيا. وبما أن الاقتصاد اليوم يتبع الجغرافيا، فإننا نجد أن ازدهار أستراليا لا يرتبط بالولايات المتحدة، بل بآسيا، وقبل كل شيء فهو يرتبط بالصين.

وتشتري الصين خام الحديد الأسترالي، والفحم، والغاز الطبيعي، والصادرات الزراعية منها، كما أنها تعد أكبر شريك تجاري لأستراليا بفارق كبير جداً. في حين نجد ان الولايات المتحدة متأخرة كثيراً عن هذه الحسابات، وهذا يخلق تناقضاً مؤلماً.

ولو أن أستراليا انفصلت تماماً عن الصين، فإنها ستلحق ضرراً بالغاً باقتصادها. وستفقد عدداً كبيراً من الوظائفي سوقها الداخلي. وسيتباطأ النمو، وستنخفض مستويات المعيشة. ومع ذلك، تخشى أستراليا التخلّي عنها. ومع تراجع القوة الغربية تدريجياً من الناحية النسبية، باتت أستراليا تشعر بالقلق من أن تتخلف عن الركب، كمجتمع غربي محاط ببيئة استراتيجية آسيوية.

إن هذا الخوف الأسترالي ليس فكرة مجردة، مع الاخذ بنظر الإهتمام أن أستراليا ونيوزيلندا هما الدولتين الغربيتين الوحيدتين في محيط آسيوي، وما ينتج عن هذا القلق من سياسة خارجية تبدو في كثير من الأحيان متناقضة.

من جهة أخرى، يجادل القادة الأستراليون مثل رئيس الوزراء السابق بول كيتينغ/ Paul Keating (تولى منصبه ١٩٩١ـ١٩٩٦)، بأن أستراليا يجب أن تجد أمنها في آسيا. وهو من بين الذين يعتقدون أن على أستراليا أن تندمج بعمق مع جيرانها، وخاصة إندونيسيا وباقي دولجنوب شرق آسيا. من ناحية أخرى، لا تزال المؤسسة الأمنية الأسترالية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالولايات المتحدة. إذ ان سلطاتها تتمسك بتحالفات مثل أوكوس/ AUKUS(وهي إتفاقية أمنية ثلاثية بين أستراليا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، تساعد فيها كل من الولايات المتحدة، وبريطانيا، أستراليا في تطوير ونشر غواصات تعمل بالطاقة النووية، إضافة إلى تعزيز الوجود العسكري الغربي في منطقة المحيط الهادئ)، ليس لأنها تحالفات مثالية، ولكن لأنها توفر الطمأنينة، والشعور باليقين في عالم غير مؤكد.

لكـن وراء الخطاب العام، يدرك صنّاع القـرار الأسـتراليون حقيقـة صعبـة، خلاصتها أن أمريكا بعيدة، وأن الصين موجودة هناك. حذرّ هيو وايت/Hugh White (أسـتاذ الدراسات الستراتيجية فـي الجامعـة الوطنيـة الاسـترالية ANU)، وهـو أحـد أبـرز المفكريـن الاستراتيجيين في أستراليا، حذّر من أن أستراليا تتشبث بما يسميه بـ «الوهـم». الوهـم بـأن أمريكا سـتظل هـي القوّة المهيمنة في آسـيا إلى أجل غير مسمى، وأن الصيـن يمكن إجبارها على القبول بذلـك. ويجـادل بأن هـذا الأمـر يمثل انتصاراً للتفكيـر المفعم بالأمنيات على السياسة الجادة. وفي جلساتهم الخاصة، يطرح صنّاع السياسـات الأسـتراليون سؤالاً نادراً ما يعبرون عنّه علناً؛

خلاصتـه: إذا اندلعت أزمة خلال ٢٠ عاماً، فهل سيخاطر أي رئيس أمريكي بأمن مدينة لوسـ أنجليسـ لإنقاذ مدينة سـيدني مثلاً؟، وفي الحقيقة لا أحد يعرف الإجابة. لكن هناك شيء واحد مؤكـد، وهو أن الصين لن تذهب إلى أي مـكان. ولهذا السـبب، ورغم التوترات والخطـاب الحاد، لن تقطع أسـتراليا علاقاتها مع بكين بشـكل كامل لأنها لا تسـتطيع تحمل ذلك. ويجب على أستراليا أن تتعلم كيفية التعايش مع جارها الدائم.

٤. دروس التاريـخ وبراغماتيـة جنوب شرق آسيا.

إذا كانت أسـتراليا تشـعر بالقلق، فـإن جنـوب شـرق آسـيا يتسـم بالبراغماتيـة. وتقـع دول رابطـة أمم جنـوب شـرق آسـيا (آسـيان/ ASEAN) مباشـرة علـى حـدود الصين. وبذلك فإنهم ليسـ لديهم رفاهية المسافة.

لقد عاشوا من قبل صراع القوى العظمى ويتذكـرون الثمـن الذي دفعـوه حينها. إنهـم يتذكـرون الحـرب البـاردة. كما إنهـم يتذكرون عندمـا أصبحت جنوب شرق آسيا ساحة معركة للآيدولوجيات المتنافسـة. وإنهم يتذكرون الدمار الذي حلّ بكل من؛ فيتنام، ولاوس، وكمبوديا. ويتذكـرون بوضوح شـديد عامًا واحدًا على وجه الخصوص، وهو عام ١٩٧٥، العام الذي انسحبت فيه الولايات المتحدة مـن فيتنام. وصـورة المروحيات وهي تقلع من السـفارة الأمريكية في سايغون محفورة فـي الذاكرة الجماعية للمنطقة. لقد كان درساً قاسياً.

إن الولايات المتحدة دولة ديمقراطية، إذ تعكس سياسـتها الخارجية الرأي العام المحلّي. وعندما يملّ الناخبون الأمريكيون، تعود أمريكا إلى ديارها. لقد عاد الجنود الأميركيون إلى الوطن من فيتنام، وأغلق الجيش الأميركي قواعـده في الفلبين. كما غـادروا أفغانستان على نفس الشاكلة. لكن الصين لا تعود إلى ديارها. إذ تتشارك الصـين حـدودًا برّيـة مـع كل من؛ فيتنام، ولاوس، وميانمار، وحدودًا بحرية مع بقية دول جنوب شرق آسيا. ولهذا السـبب تمارس دول آسيان/ ASEAN مـا يسـمى غالبـاً بـ «دبلوماسية الخيزران» (Bamboo Diplomacy)، وهو نهج سياسـي تتبنـاه دول مثل فيتنـام وتايلاند، يركز على المرونـة، والصمود، وعدم الانحيـاز للقـوى الكـبرى، والتوازن الدقيق، مستلهم من صفات البامبو (المرونـة والصلابة)، بهـدف تعزيز العلاقات مع أطراف متعددة وتأمين المصالـح الوطنيـة في بيئة دولية معقدة، كما يظهر في سياسة فيتنام تجاه روسيا والصين والغرب). ينحني الخيزران مع الريح، لكنه لا ينكسر.

ترفض دول آسيان/ ASEAN تشكيل تحالـف عسـكري ضـدّ الصيـن، ليس لأنها تثق بالصين، ولكن لأنها مضطرة للتعايـش معها. و نجد أن فيتنام تُجسّـد هذا المنطق بشـكل مثالي، إذ سـبق أن خاضت حرباً مـع الصين عام ١٩٧٩. ويحمـل ذلك شـكوكاً تاريخيـة عميقة. ومع ذلك، فإن الصين هي أكبر شـريك تجـاري لفيتنام اليوم. وقد عززت فيتنام علاقاتها مع الولايات المتحدة، لكنها لن تنضم أبداً إلى تحالف رسـمي مناهض للصين. والسـبب بسـيط. إذ أن السـفن الحربيـة الأمريكية تـزور المنطقة من حين لآخر، بينما تتواجد القوات الصينية يومياً.

وهنـا نجـد أن السـتراتيجية التي تتبعها آسـيان،هي أبعـد ما تكون عن سياسـة الاحتـواء، بـل هي في الحقيقة سياسـة تكريسـ. أي ربط الصـين بالتجارة، وبالدبلوماسـية والمؤسسـات. ولهـذا دافعت دول آسـيان/ ASEAN عن أكبر اتفاقية للتجـارة الحـرة في العـالم، وهـي اتفاقيـة تشـمل الصـين ولكنها لا تشـمل الولايات المتحـدة. عندما تخلت واشـنطن عن قيـادة التجارة الآسيوية، قامت منطقة جنوب شرق آسيا بالتكيّف مرة أخرى. لقد تعلمت هذه الدول أن انتبـاه الأمريكيين قد يتشتت، إلّا ان الصين لا تفعل ذلك.

٥. تقلّبات «البندول» الأمريكي مقابل ديمومة البنية التحتية الصينية.

ويتعزز هذا التصوّر للولايات المتحدة بوصفها «زائراً» بسبب التقلبات السياسية. ومن منظور آسيوي، تتأرجح واشنطن مثل البندول. ونجد أن إحدى الإدارات الأميركية توقع على إتفاقية دولية، فتأتي اللاحقة لتسحبها، وبينما يأتي أحد الرؤساء الأميركيين ليروّج للتعددية، ثم يأتي بعده آخر فيرفضها. ويؤدي هذا الغموض الى جعل عملية التخطيط طويلة الأمد أمراً صعباً. ويفكر القادة الآسيويون على مدى عقود، وأحياناً على مدى أجيال، إلا أنهم غير قادرين على بناء ستراتيجيات تمتد لـ ٥٠ عاماً على وفق دورات إنتخابية أميركية مدّتها ٤ سنوات فقط.

وعلى النقيض من ذلك، أظهرت استراتيجية الصين الإقليمية استمرارية واستدامة ملحوظة. وعلى مدى عقود، ركزت بيكين على البنية التحتية والاتصال والتكامل الاقتصادي. وان هذا هو المعنى الأعمق لمبادرات مثل مبادرة «الحزام والطريق».

إذ إنها ليست مجرد مشاريع اقتصادية، بل هي علامات على الاستدامة. إذ لا يمكن سحب خط السكة الحديد، كما أن الميناء لن يغير رأيه. وعندما تقوم الصين ببناء خطوط للسكك الحديدية عبر جنوب شرق آسيا، فإنها بذلك ترسخ وجودها المادي في المنطقة. والضمانات الأمنية مهمة، لكنها مجردة. والبنية التحتية هي الخرسانة، لذلك يدرك القادة الآسيويون هذا التمييز. وفي نطاق الأزمات، قد تصل القوات الأمريكية الى ميدان الأزمة، إلا أن النفوذ الصيني موجود بالفعل. غن هذا التباين يحمل أهميته الخاصة، وهو يخبر القادة الآسيويون إلى أين يتدفق الزمن، وكيف يتدفق الزمن في آسيا نحو الجار الأبدي.

٦. الخلاصة: التوازن وتحدي المستقبل

إذن، ماذا يعني هذا بالنسبة لمستقبل منطقة آسيا والمحيط الهادئ؟. هذا لا يعني أن آسيا ترغب برحيل الولايات المتحدة. على العكس من ذلك، فإن معظم الدول الآسيوية تريد أن تظل الولايات المتحدة منخرطة. إنهم يريدون القوة البحرية الأمريكية لإبقاء الممرات البحرية مفتوحة. كما أنهم راغبين في جذب الاستثمارات الأميركية، ووجود الأفكار الأميركية. ويريدون الوجود الأميركي بوصفه قوّة للموازنة، ولكن ليس كقوة للهيمنة، والفارق كبير.

لقد ولّى عهد قدرة الولايات المتحدة على فرض شروطها في آسيا. ليس لأن أمريكا فشلت، بل لأن الصين قد عادت. ولن تصبح آسيا بحيرة أمريكية، كما أنها لن تصبح بحيرة صينية. ولن يكون المحيط الهادئ ملكاً لقوة واحدة، يمكن نشرها، وستتخذ الدول الآسيوية إجراءات حذرة. كما أن الأميركيين سيستخدمون الأمن كعنصر دولي لموازنة القوة الصينية، والازدهار الصيني لموازنة عدم القدرة على التنبؤ بالأمور الأمريكية. لكنهم لن ينضموا أبداً إلى حملة صليبية لتدمير الصين. لأنهم يعلمون أنه لا يمكن القيام بذلك. الصين ليست إمبراطورية مُصطنعة. إنها حضارة. لقد سقطت من قبل، ثم نهضت مرّة أخرى. وإن المسار الأكثر حكمة بالنسبة للولايات المتحدة يتمثل بالقبول بهذا الواقع. والحكمة تحتم ايضاً التنافس دون محاولة طرد الصين من جوارها لتقديم بدائل إيجابية لإعادة الانخراط اقتصادياً واحترام دور الدول الآسيوية. وإذا ما فعلت أمريكا ذلك، فسيكون ذلك موضع ترحيب دائم في آسيا. لكن إذا سعت الولايات المتحدة الى طلب الولاء لها مع توفير التقلبات، فسوف تتكيف آسيا بهدوء، إذ أن الجغرافيا لا تجادل، بل إنها تدوم. وفي آسيا، تعني الجغرافيا العيش مع الصين بوصفها الجارة الدائمة.

معضلة أستراليا:
لماذا تبقى الصين بينما قد تغادر أمريكا؟
أمريكا:
فاعل بعيد
الصين:
جار دائم
المعضلة الأسترالية
التوافق الأمني مع
الغرب
اقتصادي
الاعتماد المتبادل
مع آسيا

إيغوف هيز

٢٠٢٥/١٢/٢٣

التراجع المزمن للدولار أمام بدائل منافسيه

المصادر:

تهديد ترامب بفرض رسوم جمركية بنسبة ١٥٠٪ يأتي بنتائج عكسية، حيث تجاوزت الصين نسبة ٩٩٪ من قدرة الدولار على الالتفاف حول الدولار.

زلزال

التخلي عن الدولار أتابع تدفقات العملات العالمية لأكثر من عقد من الزمان، ولم أرَ قط شيئاً مماثلاً لما حدث في الثلاثين يوماً الماضية. أعلن الرئيس ترامب للتو عن فرض رسوم جمركية بنسبة ١٥٠٪ على أي دولة من دول البريكس تحاول استبدال الدولار. إنه يخبر العالم أن مجموعة البريكس قد انتهت، وأن تهديداته نجحت، وأن الدولار أقوى من أي وقت مضى، لكن بينما كان ترامب يدلي بهذه التصريحات، أعلنت روسيا والصين للتو أنهما حققتا ٩٩,١٪ من تسويات التجارة بالعملة المحلية. هذا ليس من قبيل الصدفة. هذا بمثابة إعلان حرب. إذا كنت تعتقد أن الأمر يتعلق فقط بالنزاعات التجارية أو المواقف السياسية، فأنت تغفل ما يحدث هنا بالفعل. إننا نشهد التحركات الافتتاحية لأكبر حرب عملات منذ انهيار «بريتون وودز» في عام ١٩٧١. ووسائل الإعلام الرئيسية إما تتجاهلها تمامًا أو تتجاهلها عمدًا لأن تداعياتها هائلة لدرجة أنها ستؤدي إلى انهيار الأسواق بين عشية وضحاها. دعني أرسم لك الصورة كاملة لأن ما يحدث الآن سيحدد ما إذا كانت مدخراتك ستصمد خلال العقد القادم. لماذا يجب أن تهتم بما تفعله روسيا والصين فيما يتعلق بتسويات العملات الخاصة بهما؟ لأن كل عائلة أمريكية، وكل شركة، وكل متقاعد على وشك أن يشعر بعواقب هذا الزلزال المالي. عندما يفقد الدولار احتكاره للتجارة العالمية، يصبح كل ما نستورده أكثر تكلفة، نحن نتحدث عن الطعام والطاقة والإلكترونيات والملابس، باختصار كل ما يحافظ على مستوى معيشتك. إليكم تفاصيل المخاطر ببساطة. على مدى ٨٠ عاماً، استخدم العالم الدولار في التجارة الدولية. لقد منح هذا الترتيب أمريكا ميزة هائلة. بإمكاننا طباعة النقود، وبقية العالم يقبلها لأنهم يحتاجون إلى الدولارات لشراء النفط، ولتسوية التجارة، وللحفاظ على الاحتياطيات. إنها أعظم امتياز اقتصادي في تاريخ البشرية. لكن هذا الامتياز سينتهي. وينتهي الأمر أسرع مما يرغب أي شخص في واشنطن بالاعتراف به. الأمر لا يقتصر على الجغرافيا السياسية فحسب بل يتعلق هذا الأمر بإعادة تنظيم النظام النقدي العالمي بأكمله، فعندما تتوقف دول البريكس عن استخدام الدولار، هذا يعني أن عدد الدول التي تحتاج إلى الاحتفاظ باحتياطيات من الدولار سيقل. انخفاض احتياطيات الدولار يعني انخفاض الطلب على سندات الخزانة الأمريكية وهذا يعني ارتفاع أسعار الفائدة للجميع، قرضك العقاري، وقرض سيارتك، بطاقات الائتمان الخاصة بك، وكل ركن من أركان الاقتصاد الأمريكي ستطالها آثار ذلك.

تحول دول البريكس الى العملات المحلية

دعوني أشرح بالتفصيل ما يحدث وراء العناوين الرئيسية لأن الأرقام تحكي قصة لا تستطيع تهديدات ترامب تغييرها. وبحسب وزير المالية الروسي «أنطون سيلوانوف»، فقد حققت روسيا والصين تسوية بنسبة ٩٩,١٪ بالروبل وبـ UN لتجارتهما الثنائية. فكر في ذلك للحظة، اثنان من أكبر اقتصادات العالم لا يجريان أي تجارة تقريباً بالدولار، لكن إليك ما يجب أن يرعبك حقًا، هذا لا يحدث بمعزل عن غيره . تقوم الهند وروسيا بتسوية ٩٠٪ من تجارتهما بالعملات المحلية. وقّعت البرازيل والصين اتفاقية تسوية تجارية باليوان والريال في عام ٢٠٢٣. وتجري إيران وروسيا أكثر من ٩٥٪ من تجارتهما بالروبل والريال. حتى ماليزيا والهند أعلنتا مؤخراً أنهما ستنتقلان إلى نظام التسوية بالروبية. عندما نجمع أحجام التجارة الثنائية ، فإننا نتحدث عن تريليونات الدولارات من التجارة التي لم تعد تؤثر على النظام المالي الأمريكي. الأرقام مذهلة عند جمعها.

يربط نظام الدفع بين البنوك الصيني «كروسبر»، وهو بديلهم لنظام «سويفت»، الآن ٤٨٠٠ بنكا في ١٨٥ دولة. في يناير ٢٠٢٥، عالجت سي بي سي ما يعادل ٢٤,٥ تريليون دولار من المعاملات، بزيادة قدرها ٤٣٪ عن عام ٢٠٢٣. ولتوضيح ذلك، فإن هذا يقترب من إجمالي الناتج المحلي السنوي للولايات المتحدة.

وفي الوقت نفسه، تضاعفت حصة UN في المدفوعات العالمية منذ عام ٢٠٢٢، وهي تستخدم الآن ٥٠٪ من التجارة الداخلية. وفي الوقت الحالي، وهنا تبدأ الأمور تصبح مثيرة للاهتمام حقاً، بينما كان ترامب يهدد بفرض تعريفات جمركية، كانت البنوك المركزية في جميع أنحاء العالم تشتري الذهب بهدوء وبوتيرة قياسية.

تراكم الذهب لدى البنوك المركزية

في عام ٢٠٢٤ وحده، أضافت البنوك المركزية ١,٤٥ طن متري إلى احتياطيات الذهب العالمية، وهو العام الثالث على التوالي الذي يتجاوز ١٠٠٠ طن متري. تصدرت بولندا القائمة بـ ٩٠ طنًا، لكن البنوك المركزية في الأسواق الناشئة في جميع أنحاء آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا كانت تراكم الذهب المادي كما لو أنه أصبح موضة قديمة. معظم الناس يغفلون القصة الحقيقية هنا، فهذه ليست مشتريات عشوائية من قبل دول منفردة، بل هذه استراتيجية منسقة لتدويل العملة، فعندما تشتري البنوك المركزية الذهب، فإنها تقلل من اعتمادها على الاحتياطيات المقومة بالدولار، وعندما يوقعون اتفاقيات مقايضة العملات الثنائية ، فإنهم يخلقون مسارات للتجارة لا تتطلب وساطة الدولار، وعندما يقومون ببناء أنظمة دفع بديلة مثل CFS ونظام Bricks Pay القادم، فإنهم يقومون ببناء بنية تحتية مالية تعمل خارج سيطرة الولايات المتحدة تمامًا. لكن أسواق السندات الآسيوية تكشف القصة الحقيقية حول إلى أين تتجه الأمور.

اصدار السندات المقومة باليورو

قامت الشركات والحكومات الآسيوية بزيادة إصدار سنداتها المقومة باليورو إلى ٢٣٪ من إجمالي الاقتراض بالعملات الأجنبية في عام ٢٠٢٥، ارتفاعاً من ١٧٪ في عام ٢٠٢٤. وهذا يمثل زيادة بنسبة ٧٥٪ في عام واحد، أي ما يعادل ٨٦,٤ مليار دولار، حيث أصدرت الصين وحدها سندات بقيمة ٤ مليارات دولار جذبت عروضاً بقيمة تزيد عن ١٠٠ مليار دولار، وأصدرت شركة NT اليابانية سندات بقيمة ٥,٥ مليار دولار، مسجلة بذلك أكبر إصدار لليورو من قبل الشركات الآسيوية في عام ٢٠٢٥. إليكم ما لن تخبركم به العناوين الرئيسية. عندما يستطيع المقترضون الآسيويون توفير ٢٥٪ من تكاليف التمويل عن طريق تجنب الدولار، فماذا تعتقد أنهم سيختارون؟ كل سند يصدر باليورو بدلاً من الدولار يمثل مصدراً أقل للطلب على الأسواق المالية الأمريكية ، وكل صفقة يتم تسويتها بعملة UN أو الروبية تعني معاملات أقل تتطلب الدولار. موتها بألف جرح. وكل قطع يجعل القطع التالي أسهل. لكن إليكم المفاجأة، يعلم فريق ترامب أن هذا المر يجري، اذ لديهم إمكانية الوصول إلى نفس البيانات التي أعرضها لكم، حيث تتولى وزارة الخزانة الأمريكية تتبع حيازات الأجانب للأوراق المالية الأمريكية، ويراقب الاحتياطي الفيدرالي تدفقات الدولار العالمية، وتراقب وزارة التجارة أنماط تسوية التجارة. فلماذا يتظاهرون بأن كل شيء على ما يرام؟ لأن الاعتراف بالحقيقة سيؤدي إلى انهيار الثقة في الدولار بين عشية وضحاها، مما سيؤدي إلى الأزمة التي يحاولون منعها. دعني أخبرك عن آخر مرة فقدت فيها عملة مهيمنة مكانتها بهذه السرعة. لأن للتاريخ طريقة في التكرار، حتى عندما لا يتكرر.

في عام ١٩٤٨، كان للجنيه الإسترليني ضعف حصة الدولار الأمريكي في الاحتياطي العالمي. كانت بريطانيا لا تزال المركز المالي العالمي، حيث كانت لندن مركزاً للتمويل الدولي، وكان الجنيه الإسترليني يُعتبر قوياً كالذهب. ولكن بحلول عام ١٩٦٩، أي بعد ٢١ عامًا فقط، تجاوز الدولار الجنيه الإسترليني بعشرة أضعاف. وبحلول عام ١٩٨٠، انهار الجنيه الإسترليني إلى ٢٪ فقط من الاحتياطيات العالمية. ما الذي تسبب في هذا التدهور الكارثي؟

عدم المسؤولية المالية لبريطانيا، وعجزها عن الحفاظ على قابلية تحويل الجنيه الإسترليني، وصعود قوة اقتصادية أقوى، وهي الولايات المتحدة. هل يبدو هذا مألوفاً؟

تهديدات ترامب كادوات استقطاب

اليوم، تعاني أمريكا من عجز يقارب تريليوني دولار سنوياً. إننا ندفع أكثر من تريليون دولار كفوائد على ديوننا الوطنية فقط، وأكبر دائنينا ينسحبون من مزادات الخزانة، في الوقت نفسه، تقوم دول البريكس التي تمثل ٣٥,٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي العالمي ببناء بنية تحتية مالية بديلة مصممة خصيصًا للعمل حول نظام الدولار. لكن إليكم السبب الذي يجعل هذه المرة مختلفة، ولماذا قد تكون أكثر خطورة بكثير، فعندما انهار الجنيه الإسترليني، كان هناك بديل واضح واحد، وهو الدولار، المدعوم بأقوى اقتصاد وجيش في العالم، بينما اليوم، لا نشهد صعود عملة بديلة واحدة إلى الهيمنة. نشهد ظهور العديد من الكتل النقدية الإقليمية، كل منها مصمم لخدمة علاقات جغرافية واقتصادية محددة. اليوان لشرق آسيا وشركاء الصين في مبادرة الحزام والطريق، والروبل بالنسبة لمنطقة نفوذ روسيا، والروبية الهندية مهمة لعلاقات الهند التجارية المتنامية، الريال البرازيلي لشراكات أمريكا اللاتينية، بدلاً من عملة عالمية واحدة، نتجه نحو نظام نقدي متعدد الأقطاب حيث تخدم العملات المختلفة مناطق وأغراضاً مختلفة. والآن، إليكم حيث يصبح الأمر جنونياً تماماً. لماذا تهديدات ترامب بفرض تعريفات جمركية، تهديدات غير فعالة.

إنهم في الواقع يسرعون العملية التي يحاول إيقافها، ففي كل مرة تهدد فيها أمريكا بفرض عقوبات اقتصادية أو تعريفات جمركية، فإنها تعطي الدول الأخرى المزيد من الأسباب لبناء بدائل لنظام الدولار.

فكّر في المنطق من وجهة نظرهم. إذا كنت إندونيسيا وهدد ترامب بفرض تعريفات جمركية بنسبة ١٥٠٪ لمجرد مناقشة بدائل الدولار، فما هو ردك العقلاني؟ على أي حال، تقوم ببناء تلك البدائل بهدوء. لأنك الآن رأيت أن أمريكا ستستخدم السياسة التجارية كسلاح كلما شعرت بالتهديد. تقول وزارة الخارجية الإندونيسية إنها غير مهتمة بالدولرة، لكنها في الوقت نفسه توقع اتفاقيات تجارية بالعملة المحلية مع الهند، هذا ليس تناقضاً بل هذه دبلوماسية ذكية. لكن هذا ما يُقلقني ويُؤرقني ليلاً. حلقة التغذية الراجعة التي بدأت بالفعل ولا يمكن إيقافها. ترامب يهدد بفرض تعريفات جمركية، فتسعى الدول إلى التخلص من الاعتماد على الدولار. المزيد من اتفاقيات التجارة بالعملات المحلية. انخفاض الطلب على الدولار، وضعف القوة الشرائية للدولار، وارتفاع التضخم في أمريكا، والسياسات التجارية الأمريكية الأكثر عدوانية، وتزايد عدد الدول التي تبحث عن بدائل، هي دوامة تتغذى على نفسها، وكل دورة تجعلها أسرع وأكثر خطورة. تكمن عبقرية ما تفعله مجموعة البريكس في أنها لا تحاول تدمير الدولار بين عشية وضحاها. إنهم لا يشنون هجوماً مباشراً من شأنه أن يؤدي إلى رد فعل أمريكي واسع النطاق. بدلاً من ذلك، يقومون ببناء أنظمة متوازية، وتوسيع شبكات CIPS، واتفاقيات مقايضة العملات الثنائية، وتجارة السلع بالعملات المحلية. تبدو كل خطوة فردية صغيرة ويمكن التحكم فيها، لكنها مجتمعة تخلق بنية مالية عالمية لا تحتاج ببساطة إلى الدولار. وهذا ما لا يتحدث عنه أحد. البنية التحتية التقنية جاهزة تقريباً حيث أقامت روسيا علاقات تجارية واسعة النطاق لا تعتمد على الدولار في جميع أنحاء آسيا وأمريكا اللاتينية ويتم بالفعل اختبار اليوان الرقمي الصيني في التسويات الدولية، وكما للهند اتفاقيات تجارية بالروبية مع دول متعددة،

وأصبحت الإمارات العربية المتحدة مركزاً لتسوية العملات البديلة، تستضيف البرازيل مشروع تطوير بريكس المدفوع، وعندما تربط هذه الأنظمة من خلال منصة الدفع القادمة، ستحصل على شبكة مالية عالمية موازية فاسواق النفط هي المكان الذي يمكنك فيه رؤية هذا الأمر يتجلى بوضوح، وهذا يجب أن يُخيف كل أمريكي،

فقد كان رد روسيا على العقوبات بلسخرية تقريباً من حيث فعاليته. لقد فرضنا عقوبات على شركتي النفط الكبيرتين التابعتين لـ «روزنيفت» و «لوك أويل» فماذا حدث؟ ظهرت شركات شل الجديدة بين عشية وضحاها واستمر تدفق النفط الروسي عبر قنوات مختلفة، وغالباً بأسعار مخفضة جعلته أكثر جاذبية للمشترين، وهذا هو الجزء الذي يجب أن يقلقك حقاً، حيث تشتري الهند النفط الروسي بخصم حوالي ٥ دولارات عن سعر خام برنت، وتدفع أحياناً بالدرهم الإماراتي بدلاً من الدولار، وتواصل الصين استيراد كميات هائلة من الطاقة الروسية المودعة باليوان الصيني، وتبيع إيران النفط لكلا البلدين بالعملات المحلية، وفنزويلا تسير في نفس الاتجاه. عندما تجمع كل معاملات النفط التي تبتعد عن تسعير الدولار، فإنك تنظر إلى ملايين البراميل يومياً التي لا تولد طلباً بالدولار. لكن هذا هو ما يُقلقني حقاً في الليل. السرعة التي يتسارع بها هذا الأمر، ففي فبراير ٢٠٢٥، أعلن ترامب أن صناعة بريكس قد انتهت بعد تهديده بفرض تعريفة جمركية بنسبة ١٥٠٪ ، لكن في الشهر التالي مباشرة،

أعلنت البرازيل أنها تدعو المكسيك وأوروغواي وكولومبيا للمشاركة في قمة بريكس لعام ٢٠٢٥. انضمت نيجيريا رسمياً كدولة شريكة، وأصبحت إندونيسيا أول عضو كامل العضوية من جنوب شرق آسيا، وبدأت الأرجنتين، التي كانت مترددة، في إبداء رغبتها في إعادة النظر في عضويتها، وهذا هو الجزء الذي يجب أن يخيفك أكثر من غيره، حيث ان تهديدات ترامب تعمل في الواقع كأدوات تجنيد لتوسيع صناعة بريكس.

في كل مرة يهدد فيها بفرض تعريفات جمركية ضخمة، فإنه يقول للدول بشكل أساسي: «سيادتكم الاقتصادية تعتمد على البقاء في نظام الدولار». لكن الدول ذات السيادة لا تحب الإنذارات النهائية. إنهم يحبون وجود خيارات. وتمنحهم مجموعة البريكس الخيارات.

نظام دفع البريكس

دعوني أشرح لكم كيف تبدو النهاية لأننا أقرب إليها بكثير مما يدركه معظم الناس. الهدف ليس استبدال الدولار بعملة مكونة من عملة واحدة من بريكس، ولم يكن ذلك واقعياً أبداً نظراً للاختلافات الاقتصادية والسياسية بين الدول الأعضاء، والهدف هو إنشاء مسارات متعددة للتجارة الدولية لا تتطلب الدولار، وهذه المسارات على وشك أن تدخل حيز التنفيذ، حيث ان من المقرر أن يبدأ تشغيل نظام BRICS Pay بحلول أواخر عام ٢٠٢٥ أو أوائل عام ٢٠٢٦. وبمجرد تشغيل نظام الدفع هذا، ستشهد قفزة هائلة في استخدام العملة المحلية لأن أكبر عائق، وهو البنية التحتية لمعالجة المدفوعات، سيتم إزالته. تخيل عالماً تستطيع فيه البرازيل بيع فول الصويا للصين، واستخدام عائدات UN لدفع ثمن النفط الإيراني، وتسوية مشتريات الآلات الروسية بالباقي، كل ذلك دون أن تمس دولاراً واحداً. ذلك العالم يبعد حوالي ستة أشهر عن الواقع. البنية التحتية التقنية جاهزة تقريباً، وهذا ما يجب أن يُرعب أي شخص يمتلك أصولاً مقومة بالدولار. يتعامل نظام CIPS الصيني بالفعل مع ما يعادل ٢٤,٥ تريليون دولار سنوياً. هذا يعني أن الاقتصاد الأمريكي بأكمله يكاد يكون كذلك. أقامت روسيا علاقات تجارية واسعة النطاق لا تتعلق بالدمى في جميع أنحاء آسيا وأمريكا اللاتينية. لدى الهند اتفاقيات تجارية بالروبية مع دول متعددة تمثل مجتمعة أكثر من مليار نسمة. أصبحت الإمارات العربية المتحدة مركزاً لتسوية العملات البديلة ، حيث تقوم بمعالجة المعاملات للدول التي لا ترغب في المرور عبر نيويورك. لكن إليكم المفاجأة التي ستغير كل شيء.

تُعد أسواق السلع الأساسية نقطة الضعف التي قد ينهار عندها هيمنة الدولار بأسرع وقت. النفط والذهب والمنتجات الزراعية والمعادن الصناعية، هذه هي أساس التجارة الدولية. إذا بدأت دول البريكس في تسعير وتسوية تجارة السلع الأساسية بالعملات المحلية، فإن ذلك يزيل أكبر مصدر للطلب الهيكلي على الدولار. وقد بدأت هذه العملية بالفعل.

انهيار الدولار كانهيار الجنية الاسترليني

والآن، إليكم الجزء الذي يصبح فيه الأمر ذكياً حقاً، ولهذا السبب ربما يشعر فريق ترامب بالذعر خلف الأبواب المغلقة. لم تنضم المملكة العربية السعودية رسمياً إلى مشروع بريكس، لكنها تراقب هذا الأمر بعناية فائقة، إذا بدأت معاملات النفط بالابتعاد عن الدولار بكميات كبيرة، فسيتعين على السعوديين الاختيار بين علاقتهم الأمنية مع أمريكا وعلاقاتهم الاقتصادية مع أكبر عملائهم.

تُعد الصين بالفعل أكبر شريك تجاري للمملكة العربية السعودية. الهند مستورد ضخم للنفط. لا تزال روسيا منتجاً رئيسياً للطاقة رغم العقوبات المفروضة عليها. إذا تحولت تلك العلاقات إلى تسويات باليوان أو الروبية أو الروبال، فإن نظام الدولار النفطي الذي رسخ هيمنة الدولار منذ سبعينيات القرن الماضي سيبدأ في التصدع. وبمجرد ظهور هذا الشق، فإنه ينتشر بسرعة،

حيث بدأ منتجو النفط الآخرون في قبول العملات البديلة، وتكتسب بورصات السلع في شنغهاي وومباي وساو باولو حصة سوقية على حساب نيويورك ولندن، وبدأت البنوك المركزية تتساءل عن سبب حاجتها إلى الاحتفاظ بهذا الكم الهائل من الدولار إذا لم تكن تستخدمها في التجارة. إليكم ما يحدث عندما تتوقف الموسيقى. عندما يتحول قدر كافٍ من التجارة العالمية بعيداً عن الدولار بحيث تبدأ الدول في تقليل احتياطياتها من الدولار، فإن تلك الدولارات تعود بغزارة إلى أمريكا، مما يؤدي إلى ارتفاع التضخم، ويجبر الاحتياطي الفيدرالي على الاختيار بين طباعة المزيد من الأموال لشراء سندات الخزانة أو السماح بارتفاع أسعار الفائدة لجذب المشترين الأجانب. كلا الخيارين كارثي. إن زيادة طباعة النقود تدمر القوة الشرائية للدولار، في حين أن ارتفاع أسعار الفائدة قد يؤدي إلى انهيار سوق الإسكان، واقتراض الشركات، والتمويل الحكومي دفعة واحدة، وهذا هو الجزء الذي يجب أن يرعبك أكثر من غيره، حيث يعتقد ترامب أنه يستطيع حل هذه المشكلة بالتعريفات الجمركية والتهديدات. لكن لا يمكنك الخروج من التحول النقدي القائم على الحوافز الاقتصادية الأساسية عن طريق فرض التعريفات الجمركية فعندما تستطيع الدول توفير المال، وتقليل مخاطر العملة، وتجنب الضغوط السياسية باستخدام عملات بديلة، فإنها ستفعل ذلك بغض النظر

عما يغرّد به ترامب. الجزء المخيف هو مدى سرعة تسارع هذا الأمر بمجرد وصوله إلى نقطة التحول. قد تكون التحولات النقدية تدريجية لسنوات، ثم تصبح مفاجئة وعنيفة. استغرق انخفاض قيمة الجنيه الإسترليني عقوداً، لكن الانهيار النهائي حدث في غضون أشهر.

سيطرة البريكس

إذا كان نظام دفع ثمن البريكس يعمل كما هو مصمم، وإذا بدأت أسعار السلع الأساسية في التحول بعيدًا عن الدولار، وإذا أدت أزمة كبيرة إلى الهروب من أصول الدولار، فقد نشهد إعادة تنظيم النظام بأكمله في غضون أسابيع، وليس سنوات. لكن إليكم ما لا يريد أحد في واشنطن الاعتراف به. هذا التحول لا يمكن إيقافه بالفعل. تم بناء البنية التحتية، والعلاقات قائمة، الحوافز الاقتصادية واضحة. يستطيع ترامب أن يهدد بفرض كل الرسوم الجمركية التي يريدها، لكنه لا يستطيع تغيير حقيقة أن أمريكا تمثل الآن حصة أصغر من الناتج المحلي الإجمالي العالمي مقارنة بما كانت عليه عندما تم إنشاء النظام الحالي. لا يستطيع إجبار الدول الأخرى على الاحتفاظ بالدولار الذي لا تحتاجه، ولا يستطيع منعهم من بناء أنظمة تخدم مصالحهم بشكل أفضل من الترتيب الحالي. لا داعي للذعر، ولكن لا تتوقعوا أيضاً. سيستغرق هذا التحول سنوات، وربما عقودًا، حتى يكتمل تمامًا، لكن الاتجاه واضح والتحركات المبكرة تؤثر بالفعل على الأسواق.

أولاً، يجب أن نفهم أننا ننتقل من نظام نقدي أحادي القطب إلى نظام متعدد الأقطاب، وهذا يعني مزيداً من التقلبات، ومزيداً من التعقيد، ولكن أيضاً مزيداً من الفرص لأولئك الذين يضعون أنفسهم في المكان الصحيح. ضع في اعتبارك تنويع التعرض للعملات، ليس فقط اليورو والين، ولكن أيضًا الين والروبية وعملات الأسواق الناشئة الأخرى عندما تصبح أكثر سهولة في الوصول إليها.

ثانياً، انتبه للأصول المادية والسلع، فعندما تكون أنظمة العملات في مرحلة انتقالية، تميل الأصول الحقيقية إلى الاحتفاظ بقيمتها بشكل أفضل من الوعود الورقية. الذهب والفضة والعقارات المنتجة والسلع الأساسية، وتحافظ هذه العملات على قوتها الشرائية بغض النظر عن العملة التي تفوز أو تخسر هيمنتها.

ثالثًا، راقب أسواق السلع بحثًا عن إشارات الإنذار المبكر. إذا بدأت ترى أسعار النفط باليوان، أو تداول الذهب بالروبية، أو تسوية المنتجات الزراعية بالبكرات. هذه علامات على أن التحول النقدي يتسارع بوتيرة أسرع من المتوقع.

السؤال ليس ما إذا كان هذا التحول النقدي سيحدث أم لا. إنه يحدث بالفعل. السؤال هو: ما مدى سرعة تسارعها، وما مدى عنف تطورها؟ قد تؤدي تهديدات ترامب بفرض تعريفات جمركية إلى إبطاء بعض الدول على المدى القصير، لكنها تعطي الجميع أيضاً حافزاً أكبر لبناء بدائل للدولار على المدى الطويل. إن وصول روسيا والصين إلى نسبة ٩٩,١٪ من تسوية العملة المحلية ليس مجرد رقم. هذا دليل على أن الاقتصادات الكبرى يمكنها العمل بدون الدولار.

تُظهر ترتيبات التجارة بالروبية الهندية أن الديمقراطية والاستبداد يمكنهما إيجاد بدائل عندما يخدم ذلك مصالحهما، وإن توسع البرازيل في شراكات بريكس يوضح أن الأمر لا يتعلق فقط بالمشاعر المعادية لأمريكا. الأمر يتعلق بالكفاءة الاقتصادية والسيادة، فلن يختفي الدولار بين عشية وضحاها بل سيظل هذا الأمر مهماً لعقود قادمة. لكن وضعها الاحتكاري آخذ في الانتهاء. وهذا يغير كل شيء فيما يتعلق بكيفية عيش الأمريكيين، وادخارهم، واستثمارهم. أخبرني بهذا إذن.

هل تعتقد أن استراتيجية ترامب المتعلقة بالتعريفات الجمركية ستمنع بريكس من بناء بدائل للدولار؟ أي كتلة عملات ستكون الأقوى بحلول عام ٢٠٣٠؟ هل نختار منطقة الدولار أم البدائل التقليدية؟ وهل تقوم بتخصيص مدخراتك لعالم يكون فيه الدولار مجرد عملة واحدة من بين عدة عملات، وليس العملة الوحيدة المهمة؟